نهر النيل في شعر المحافظين والمجددين
دراسة تحليلية نقدية موازنة

إعداد

د/محمد فتحي قنطوش

دكتوراه في اللغة العربية

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

(العدد الرابع والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. أكتوبر)

(١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م)

نهر النيل في شعر المحافظين والمجددين
دراسة تحليلية نقدية موازنة

محمد فتحي السيد قنطوش
دكتوراه- كلية اللغة العربية – إيتاي البارود- جامعة الأزهر – مصر.
البريد الإلكتروني: d.kantosh@yahoo.com

ملخص البحث: يتناول هذا البحث موضوع نهر النيل عند شعراء مصر المحافظين والمجددين دراسة تحليلية نقدية موازنة، وذلك من خلال الجانب التاريخي والفني، وبيان منزلة نهر النيل في عيون الشعراء، ورسم معالم منطلقاتهم المنهجية والفكرية والفنية، والكشف عن طابع الأصالة الأدبية والتميز فيها في ضوء المعطيات النقدية والكشف عن ملابساتها الزمانية والمكانية. وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن يأتي البحث من فصلين تسبقهما مقدمة وتمهيد وتعقبهما خاتمة.وقد انطلقت في الفصل الأول مع محمود سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم في رحلة نيلية مبرزا حبهم وعشقهم الشديد لنهر النيل، فما كان يمكن لهم أن يتصوروا مصر بدون نهر النيل فأبدعوا فيه أجمل صور الإبداع الشعري التي جمعت بين الأصالة والمعاصرة الفنية. وقد استمرت الرحلة النيلية ولكن هذه المرة مع شعراء مصر المجددين الرومانسيين كعباس محمود العقاد وأحمد زكي أبوشادي وعلي محمود طه وعبدالمنعم عواد يوسف، وكان لظهور النيل في شعر هؤلاء وكثرة احتفالهم به سبب رئيس في اختيارهم، فالنيل عندهم ينبوع الشعر الجميل ونبع الحياة ومصدرها وجزء لا يتجزأ من الطبيعة المصرية الخالدة. ثم يختتم البحث بالنتائج التي توصل الباحث إليها من خلال دراسة هذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: نهر النيل– نبع الحياة– التاريخ والفن.

(The Nile River in the Poetry of Conservatives and Reformers: Analytical Critical Balancing Study)

Mohamed Fathi El-Sayed Kantosh
Ph.D. - Faculty of Arabic Language - Itay El-Baroud - Al-Azhar University - Egypt.
Email: d.kantosh@yahoo.com

Abstract: This research deals with the topic of the Nile River for the conservative and modernist poets of Egypt, an analytical and critical study, through the historical and artistic aspect, clarifying the status of the Nile River in the eyes of the poets, and drawing the features of their methodological, intellectual and artistic premises, and revealing the character of literary originality and excellence in it in the light of Monetary data and the disclosure of temporal and spatial circumstances. The nature of the study required that the research come from two chapters preceded by an introduction and a preface and followed by a conclusion. It started in the first chapter with Mahmoud Sami Al-Baroudi, Ahmed Shawki and Hafez Ibrahim on a Nile cruise, highlighting their love and intense love for the Nile River, so they could not imagine Egypt without the Nile River, so they excelled in it The most beautiful pictures of poetic creativity that combined artistic originality and contemporary art. The Nile journey continued, but this time with the romantic renewal poets of Egypt, such as Abbas Mahmoud Al-Akkad, Ahmed Zaki Abu Shadi, Ali Mahmoud Taha and Abdel Moneim Awad Youssef. From the timeless Egyptian nature. Then the research concludes with the results reached by the researcher through the study of this topic.

Keywords: Nile River - spring of life - history and art.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإن موضوع هذا البحث (نهر النيل في عيون الشعراء دراسة تحليلية نقدية موازنة) يتضمن جانبين أحدهما: فني ويعني تميز وجدَة النتاج الفني وصدقه الشعوري.

والثاني: اجتماعي وثقافي وقل ما شئت فيه من جمال وكمال فنهر النيل بالنسبة للمصريين هو الحياة بكل ما تحمل الكلمه من معانٍ ودلالات وأمن وأمان.

ويعود اختيار هذا الموضوع إلى طرافته وحداثته و تعرض عدد كبير من الشعراء على اختلاف اتجاهاتهم إلي الاغتراف من معينه الذي لا ينضب ودافع آخر وهو الصراع القائم الآن بين أثيوبيا ودول حوض النيل؛ لمحاولة الأولى السيطرة والتحكم في حصص المياه للدول الأخرى. وقد يقول قائل إن هناك من سبقك بالحديث والبحث والدراسة حول موضوع النيل بالعرض والتحليل الأدبي كالدكتورة "نعمات أحمد فؤاد" أقول إنه بعد المطالعة لما كتبته الدكتورة "نعمات أحمد فؤاد" تبين أنها لم تذكر إلا القليل من الشعر المصري وأنها عرجت على الأدب السوداني كثيراً.

أما هذا البحث فقد تناول شعر المحافظين والمحدثين من شعراء مصر، وبيان وجوه الاتفاق والاختلاف، ورسم معالم منطلقاتهم المنهجية والفكرية والفنية، وما تشف عنه من تفسير للنتاج الشعري. ومن هنا اقتضت طبيعة الدراسة أن يأتي البحث من فصلين تسبقهما مقدمة وتمهيد وتعقبهما خاتمة.

أما التمهيد فوقفت فيه مع التاريخ ونظرت إلى النيل من خلاله، و كانت نظرة سريعة، وذهبت مع من حاولوا اكتشاف منابعه، ثم ذكرت أشهر أسماء

النيل، وأدليت بدلوي مع من عللوا تسميته بالنيل، وأشرت بعد ذلك إلى النيل في القرآن الكريم، وختمته بالحديث عن وفاء النيل.

أما الفصل الأول: فقد انطلقت في رحلة نيلية مع ثلاثه شعراء من المدرسة الكلاسيكية المحافظة وكان بعنوان "نهر النيل عند الشعراء المحافظين". وذلك من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: محمود سامي البارودي

المبحث الثاني : أحمد شوقي

المبحث الثالث :حافظ إبراهيم وخوفا من الإطالة أقتصرت على أن أقطف من كل بستان زهرة.

وفي الفصل الثاني استمرت الرحلة النيلية ولكن هذه المرة كانت مع شعراء المدرسة الرومانسية المجددة وكان بعنوان "نهر النيل عند الشعراء المجددين". وذلك من خلال أربعة مباحث :

المبحث الأول: عباس محمود العقاد

المبحث الثاني: أحمد زكي أبو شادي

المبحث الثالث: علي محمود طه

المبحث الرابع: عبدالمنعم عوَاد يوسف.

وقد أسرعت بالزمن؛ لألقي الضوء علي الآراء النقدية بين المدرستين، ولم أطل الوقوف خوفاً من الملل والكآبة، ومضيت لأختم رحلتي النقدية مع شعراء المدرستين؛ حيث ختمت البحث بإبراز ما استشرفت في المعالجة للموضوع من غاية، وما انتهت به الخبرة له من اقتراح وتوصية

أما مصادر الدراسة ومراجعها فقد تنوعت وتعددت حيث شملت المراجع والمصادر اللغوية والتاريخية والادبية والنقدية والدواوين الشعرية.

أما مصادر الدراسة ومراجعها، فقد تنوعت وتعددت، حيث شملت المراجع والمصادر اللغوية والتاريخية والأدبية والنقدية والدواوين الشعرية، وذلك لتعدد جوانب واتجاهات الماده الادبيه للبحث والدراسة. وحاولت أن أنتقي من

المصادر والمراجع أهمها وأدلها على ذلك التعدد والتنوع في شعر المحافظين والمجددين، وكذلك رجعت إلى كثير من كتب النقد الأدبي قديماً وحديثاً.

أما المنهج الذي سرت عليه في معالجة موضوع البحث، فقد كان منهجا تاريخيا في التمهيد، وفنيا في فصليه التحليليين يحرص على إبراز النماذج، وتحليلها تحليلاً فنيا، وإلقاء الضوء على ما فيها من أسرار بلاغية في ضوء المعطيات النقدية وظروفها الزمانية والمكانية، وقد ارتبط بحثي بهذا المنهج متوخيا الملاحظات الآتية:

١. أن البحث لا ينصب في أساسه المحدد إلى الحديث عن النماذج الشعرية التي تتضمنها حدود مادته وفترته الزمنية، بل من أجل إبراز جماليات النصوص الجمالية، والكشف عن طابع الأصالة الأدبية والتميز فيها، وبيان منزلة نهر النيل في قلوب الشعراء.
٢. أوردت الأسماء مجردة من الألقاب الأكاديمية وذلك مسلك منهجي؛ لمراعاة الموضوعية والاعتداد بها، وتبقى وراء لقب "شاعر" في موضع الحفظ والتقدير.
٣. نظرا لكثرة المادة الشعرية في تلك الفترة الزمنية من خلال سواء مدرسة المحافظين والشعراء المجددين، فقد حرصت على انتقاء أبرز النماذج الشعرية بعد جمعها، ومحاولة الإلمام بها وتمحيصها، وأقتصرت على أن أقطف من كل بستان زهرة.
٤. اخترت هؤلاء الشعراء دون غيرهم؛ وذلك لظهور النيل في شعرهم بكثرة وتنوع بارزين .

وقد صادفتني صعوبات جمة في إعداد هذا البحث، كان أبرزها سعة مادته وتشعبها' و ما في بعض النماذج الشعرية والاتجاهات النقدية والفلسفية من إبهام و وغموض، وكان ارتباطي بعملى مشقة أخرى' لا يخفى أثرها. فأرجو أن أكون قد وفقت في تقديم صورة سريعة عن نهر النيل في الشعر المصري عند الشعراء المحافظين والمجددين. وأنا لا أنكر أن في بحثي جوانب من

القصور، ولا أزعم أنني قطعت قول كل باحث وقلت كلمة الفصل تجاه كل جزئية، خاصة في ظل موضوع هذا البحث بجوانبه المتشعبه، وحسبي أنني أخلصت النية، وبذلت ما في وسعي من جهد.

الباحث:

د/ محمد فتحي قنطوش

التمهيد

النيل تاريخ وحضارة:

لقد صنع النيل تاريخ مصر، وأرسى حضارتها الخالدة، فانعكس ذلك على الأدب المصري، وعلى الفكر والثقافة العربية والإفريقية، وأصبح كل مصري يفخر به في شتى مناحي الحياة بأسرها، في كلامه وغنائه في شعره ونثره، في واقعه وحلمه، في كل منعطف من منعطفات حياته الفكرية والثقافية والأدبية.

جاء لفظ "نيل" في المعاجم العربية، فلسان العرب يقول: والنيل نهر مصر حماها الله وصانها وفي الصحاح فيض مصر وجعل أمية بن أبي عائد السحاب نيلاً فقال:

أناخ بأعجازٍ وجاشت بحاره .. ومد له نيل السحاب المُنَزَّلُ (١)

أما القاموس المحيط: فلم يزد على قوله: **والنيل بالكسر نهر مصر**(٢)

والمصباح المنير قال: **والنيل فيض مصر** (٣)

هذا ما قالته معاجم اللغة، أما كتب الرحلات والموسوعات ومعاجم البلدان، فقد عرضت لاسم "النيل" بشيء من التخريج فقال عبد اللطيف البغدادي:

وأما النيل فعل من نالَ ينال نيلاً،أو من نالَ ينول نولاً،يقال نولته تنويلا، ونلته نولا، إذا أعطيته والنيل اسم ما ينال (٤)

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن النيل أو نيل مصر يرجع إلى الاسم اليوناني(نيلوس)، وقد وجد في عيون الأدب العربي ولو أنه لم يرد من القرآن الكريم بلفظه، وإن كان وجد بألفاظ أخرى مثل: (اليم) و(الفيض)، كما ورد في كتاب الأمكنة للزمخشري. وجاء في دائرة المعارف الإسلامية –أيضا– أن لفظة(البحر) كانت في العصور الوسطى عند المصريين(النهر)، وكذلك كان

(١) لسان العرب. لابن منظور .الجزء السادس، ص ٤٥٩٤ . ط دار المعارف.
(٢) القاموس المحيط.للفيروز أبادي ج ٤ . ص٦٣ . ط٢ مصطفي البابي ١٩٥٢م.
(٣) المصباح المنير ص٦٣٢ ج٢ ط دار المعارف القاهرة .
(٤) الإفادة والاعتبار لأحمد محمد الفيومي ص ٤٥ ط١ مطبعة وادي النيل ١٢٨٦ هـ .

العرب الأقدمون يطلقون لفظة البحر على النهر العظيم، وكان النيل يطلق عليه أيضا (البحر) أو (بحرمصر)، حتى فروعه كان يطلق عليها البحر {بحر يوسف} أو {بحر الغزال} [١]. أما دائرة المعارف البريطانية، فتُرجح أن اسم النيل يرجع إلى اللفظة اللاتينية(نيلوس)واليونانية (نايلوس) وأصلهما غير معروف [٢].

وجاء في دائرة المعارف الفرنسية، أن هناك ثلاثة من القديسين يسمى كل منهم نيلا[٣]، وأرجح أن كلمة نيل بدون الألف واللام علما وضعيا قديما، وضع لهذا المجري المائي. وإذا كان النهر نفسه لم يخلو من العرب بالالتفات المفروض في أدبهم من القديم وحتى العصر الحديث، فلا ينتظر منهم أن يتعمقوا في اسمه، أو يقفوا عنده كثيرا أو قليلا قصائدهم أن يأخذوا هذا الاسم عن أصحابه كما فعلوا، [٤] كما أنه لا يوجد شعب من شعوب العالم ارتبطت حياته ووجوده بنهر مثل الشعب المصري؛ لذلك ليس بمستغرب أن يطلقوا عليه من الألقاب والصفات"رب الرزق العظيم"، "رب الأسماك"،و"خالق الكائنات"[٥].

ولقد بذل المصريون الأوائل جهوداً كبيرة في التعرف على منابع النيل، وتدل المعلومات التي سقاها الباحثون من آثارهم، على أن امتداد علمهم بمجرى النيل جنوباً حتى التقائه بالنيل الازرق، بل ربما حتى بحيرة (نو) ولم يعق تقدمهم جنوباً سوى منطقة السدود، وعندما جاء اليونانيون حاولوا التوغل جنوباً، إذ قام هيرودوت عام ٤٥٧ ق م برحلة في النيل حتى الشلال الأول،

---

(١) انظر: النيل في الأدب المصري.د/ نعمات أحمد فؤاد ص ٣٨،٣٩ ط دار المعارف مكتبة الدراسات الأدبية ١٩٦٢ م.

(٢) انظر: النيل في الأدب المصري د نعمات أحمد فؤاد ص ٣٩.

(٣) انظر: النيل في الأدب المصري. د/نعمات أحمد فؤاد ص ٣٩.

(٤) انظر: السابق ص٤٠.

(٥) انظر: السابق ص ٣٣.

ولكنه لم يستطع التوغل أكثر من ذلك بسبب الجنادل، واكتفى بجمع المعلومات من التجار، وسمع أن النهر ينبع من أثيوبيا، وأن منابعه الكبرى في الغرب.

ويعد(بطليموس) بحق أعظم الجغرافيين القدماء، الذين وصفوا النيل بشيء من الدقة، حيث ذكر إن النيل ينبع من بحيرتين جنوب خط الاستواء، يستمدان ماءهما من ذوبان الثلوج التي تكسو جبالاً شاهقة تسمى جبال القمر، تقع من الجنوب من البحيرتين. كما كان للعرب فضل كبير في تقديم المعلومات للكشف عن منابع النيل؛ فقد جمع تجارهم ورحالاتهم أثناء تجوالهم، الشيء الكثير عن منطقة المنابع، وقد ساعدت تجارتهم وأخبارهم عن هذه المنطقة رحالة العصور الحديثة في الوصول إلى سر هذا النهر. وفي العصور الحديثة تم كشف منابع النيل بواسطة عدد من الرحالة والرواد والمغامرين، واستغرقت محاولاتهم ما يزيد على قرن من الزمان، ومن هؤلاء: "جيمس بروس" الأسكتلندي، و"سليم قبطان"، و"سيبك" الانجليزي، و"أمين باشا" الألماني المسلم(١).

كما تعددت أسماء النيل في الكتب الأدبية والتاريخية والدراسات النقدية؛ حيث كان المصريون القدماء يطلقون عليه اسم(حابي)، وظل يعبد حتى آخرعصور الوثنية، وكثيراً ما أطلق المصريون القدماء على النيل اسم (يارعو) أي (البحر العظيم)؛ وذلك أن يار باللغة المصرية القديمة تعني: (نهر)، وعو تعني: (العظيم)، وظلت هذه التسمية قائمة حتى عهود غير بعيدة، وبقى اللفظ في اللغة القبطية. والعرب يسمونه(النيل) أو(نيل مصر)، وفي العصر الحاضر يطلق المصريون على النيل عدة ألفاظ منها (النيل) و(نهر النيل) و(بحر النيل) و(البحر)(٢).

---

(١) انظر: جغرافية مصروحوض النيل.د/محمد محمود الصياد وآخرون ص٧-١١ ط دار الأخبار١٩٨٨م.

(٢) انظر: دائرة معارف الشعب ع٤٩ ص٢٤٦.

وكما تعددت أسماء النيل تعددت أوصافه، فقد وصف عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب بقوله: اعلم يا أمير المؤمنين إن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان حتى إذا ما صخب عجاجه وتعاظمت أمواجه، فاض على جانبيه، فبينما مصر يا أمير المؤمنين، لؤلؤه بيضاء، إذ هي غبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك الله الفعال لما يشاء(١).

ولعله واضح أن المصريين في مختلف العصور يحتفلون بعيد الوفاء، عيد الرغد والنماء والخير والرخاء، والاحتفال بوفاء النيل من أعياد مصر القومية، وأعيادها البحرية، إذ تتزين الترسانة البحرية كما تتزين قطعها لتختال في النيل. وفي هذا الإطار جاء في نهاية الإرب في فنون الأدب للتنويري، وقد ذكر بعض المقرئين لكتاب الله العزيز أن يوم وفاء النيل، هو اليوم الذي وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع في قوله تعالى أخبارا عن فرعون:

" **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** "(٢)

وقد جرت عادة الناس آنذاك على الاجتماع في هذا اليوم من كل عام(٣)

ويلقانا عبد الوهاب النجار برؤية أكثر تحديدا، على أن يوم الزينة هو يوم وفاء النيل، وأنه كان من أعظم أعياد المصريين(٤). وهو ما يعبر عنه ابن

(١) انظر: النيل في الأدب المصري د/نعمات أحمد فؤاد ص ١٤٨.

(٢) سورة طه آية ٥٩.

(٣) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب للتنويري ج١، ص ٢٦٤، ط دار الكتب ١٩٢٣م.

(٤) انظر: قصص الأنبياء .أ/ عبدالوهاب النجار ص ١٨٨ ط ع مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٥٦ م.

كثير بقوله: وهو يوم عيدهم ونيروزهم وتفرغهم من أعمالهم، واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء(١).

وهو ما أورده النسفي في تفسيره: ولما كان نيروزهم كثائر أعيادهم الكبرى يجري فوق النيل وعلى شطآنه، بل هو مرتبط بميعاد الفيضان، فيغلب أن يوم الزينة من أيام النيل إن لم يكن يوم وفائه بالذات(٢).

علي أن هذا التذكير بيوم وفاء النيل والاحتفال بذكرى هذا اليوم. يهيئنا للانتقال إلى القول بأن الحفاظ على مياه النيل، وحمايته من التوقف عن جريانه، وحمايته من التلوث، تعد مسالة حياة أو موت بالنسبة للمصريين، وما زال النيل يجري بخيره وسيظل يجري بإذن الله – سبحانه وتعالى–.

وقد ذكر "ابن كثير" في تفسير القرآن العظيم أنه لما ولي عمرو بن العاص مصر، أتاه أهلها حين دخل بؤونه من أشهر القبط فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُّنة لا يجري إلا بها، قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام؛ إن الاسلام يهدم ما كان قبله فأقاموا بؤونه والنيل لا يجري، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلي عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر أنك قد أصبت بالذي فعلت، وقد بعثت إليك ببطاقه داخل كتابي هذا فألقها في النيل، فلما قدم كتابه، أخذ عمرو البطاقه ففتحها فإذا فيها:"من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى نيل أهل مصر أما بعد: فإنك إن كنت تجري من قبلك، فلا تجري، وإن كان الله الواحد هو الذي يجريك، فنسأل الله أن يجريك"، فألقي البطاقة في النيل، فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج٣ ص ١٥٦ نشر المكتبة التوفيقية.

(٢) تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك النذيل وحقائق التأويل لعبدالله أحمد بن محمد النسفي ج٢ ص٣٦٤ ط بولاق.

الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقد قطع الله عن أهل مصر تلك السُّنة الى اليوم(١).

هذه رواية عروس النيل كما أثبتها المؤرخون المسلمون، وقد نقلت نصها هذا عن ابن كثير في كتابه(تفسير القران العظيم). وقصة عروس النيل خرافة تستند الى أسطورة روجها المؤرخ الإغريقي(بلوتارك)، خلاصتها أن(إجنتوس) ملك مصر استلهم الوحي؛ ليهد به السبيل لاتقاء كوارث نزلت بالبلاد، فنصحه أن يضحي بابنته، بأن يلقيها في النيل، ففعل ثم أنه فاء بالوزر الذي ألم به، فألقى بنفسه في النيل فهلك كما هلكت ابنته. وهذه الخرافة التي روجها بعض كتاب الإغريق من بعد (بلوتارك) لم يرد لها ذكر في الكتابات المصرية، وهي مع ذلك مصدر الأسطورة التي ذاعت في الناس قروناً، ونسج حولها الخيال من فنون الرواية والقصص، ما جعل كثير يتوهمونها حقيقة حدثت بالفعل، وأنها كانت تتكرر كل عام.

أم أن عروس النيل قد نسجها الخيال حول ما جاء في ورقة(هاريس) البردية التي ترجع إلى عهد رمسيس الثالث.. ولكن ليس في ورقة(هاريس) ذكر لعروس عذراء، تتزين، وتلقى في النيل، وكل ما جاء فيها أنه كان على امتداد النيل ما يزيد على مائة مرساه، بين كل مرساه وأخرى سبعة أميال، وفي كل مرساة محراب (الحابي) إله النيل، وكان يوضع في كل محراب طاقة من الزهور و ستة تماثيل من خشب الجميز، الحابي إله النيل وستة تماثيل أخرى للإله(ربيت) زوجة النيل، بالإضافة إلى تماثيل أخرى للإله(الحابي) مصنوعة من الذهب، وكانت هذه التماثيل كلها تلقي في النيل يوم الاحتفال بعيد حابي، في براءة الانقلاب الصيفي ويؤتي بدلها بجديد غيرها، يقام فيه تلك المحاريب وهكذا كل عام. فهل استمد الخيال، قصة عروس النيل، من هذه التماثيل التي كانت تلقي في النهر؟

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج٣ ص ٤٦٤.

أياً كان الأمر فالقصة أسطورة من أولها لأخرها، زينا الوهم ثم خلع القدم على الوهم صورة الحقيقة فإذا للنيل عروس من بنات حواء، تلقي فيه في ريعان شبابها و في ثياب زينتها، وإذا المؤرخون يتناقلون هذه الأسطورة على أنها حقيقة بقيت على الحياة القرون الطوال، وخلال تلك الأوهام والأخيلة، ظل النيل يجري ويجري يؤدي عمله على طريقة النواميس الكبرى في الكون، في صمت لا يحفل بالكلام، لا يعبأ بالأساطير، ولا يهتم بالأوهام، ما دام ذلك كله لا يصده عن المسير أو يعوقه عن الجريان، وهو أثناء هذا يطوي الأجيال جيلاً وراء جيل، ويبني الحضارات حضارة وراء حضارة، ويصنع التاريخ من هجمات الطامعين والحاقدين والمغيريين على أرضه، ثم ارتداهم مدحورين عن حوضه وتواصل الحياة على ضفافه كما شاء الله، لا كما أراد المغيرون(١).

وأعني بالعصر الحديث، الحداثة الزمنية المعرفية، وتبتدئ من أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، مروراً بمدرسة المحافظين ومدرسة المجددين وتمتد إلى زمن الإنتهاء من صياغة هذا البحث.

وجاء القرن التاسع عشرفاستيقظ النوام على أصوات مدافع نابليون، بدأوا يشعرون بأن هناك من الأخطار والمكائد التي تطوقهم فبدأت الوطنية تفيق من سباتها، وتنفض غبار الماضي، وبدأ الشعور بالوطنية يجد صداه في الأدب بوضوح في مشاعر الخطباء والشعراء... والشعر أصدق فنون الأدب تأثراً بالأحداث، وما يطرأ فيها من تقلبات، وعصر الثورات أشد تأثيراً في حياة الشعر من عصور الركود والدعه؛ لذلك كانت الثورة العرابية في عصر توفيق بعيدة الأثر في تطوير الشعر الحديث(٢).

والشعراء المحدثون حتى وقت انتهاء البحث فترة غنية بالشعراء، لذا سوف أقتصر على أشهر الشعراء وأبرزهم في عالم الشعر والشعراء، وأكثرهم احتفالا

(١) انظر: النيل في الأدب المصري . د/نعمات أحمد فؤاد ص ١٤٣ ، ص١٤٧.

(٢) انظر: الأدب العربي الحديث د/ محمد سعد فشوان ص ٣٧ ط الرسالة القاهرة ١٩٨٦م.

بالنيل في شعرهم، ولعل من أول هذه المؤثرات في النهضة الأدبية الحديثة بصفة خاصة دور الأزهر الرائد في المنطقة العربية والاسلامية كلها؛ فالأزهر هو الذي حفظ العلوم الاسلامية واللغة العربية، أكثر من ألف عام من الضياع والاندثار، وهو الذي حفظ للأدب العربي رونقه وبهاءه في شتى بلاد العروبة والاسلام. وظل يقاوم مئات السنين التيارات التي كانت تهب من الشرق ومن الغرب على السواء؛ محاولة طمس الدين واندثار لغة القرآن وكم تعرض لمحاولات القضاء عليه، لإنهاء دوره القيادي والفعال؛ من أجل القضاء على دين الله والقضاء على العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

ولكن باءت كل المحاولات بالفشل، وكان الأزهر من وراء كل خطوة من خطوات الإصلاح والنهوض في شتى مجالات الحياة، مما كان له أثره بالتالي في الحياة الأدبية في العصر الحديث؛ ففي مجال إحياء التراث ونتيجة لتلك البقعة وهذا الوعي، أحس كثير من المثقفين في ذلك الوقت وعلى رأسهم رجال الأزهر، بوجوب إبراز عظمة أمتهم وإشراف تاريخهم مع أصالة تراثهم، وأن أمة العرب المسلمين لم تكن لترضى أن تعيش عالة على الغرب وحضارته، بل إن الغرب هو الذي كان عالة على أمة العروبة والإسلام وحضارتها، ومن ثم كان اتجاه تلك الطبقة المثقفة إلى التراث العربي القديم والإسلامي الزاخر بكل عوامل النهوض والرقي، فانتقوا أجمل روائع هذا التراث؛ بهدف إحيائها ونشرها ولتكون منطلقا إلى مزيد من الوعي والرقي في مجال العلم والأدب بل في كل مجالات الحياة.

وفي جمال الترجمة والتأليف يعتبر رفاعة الطهطاوي من الرواد الأوائل، وقد كانت فرصته سانحة له؛ عندما أرسله محمد علي إماماً لأول بعثة مصرية إلى فرنسا، فتعلم الفرنسية حتى أتقنها ثم قام بترجمة أكثر من عشرة مؤلفات بين كتاب ورسالة.

ثم بدأ بعد ذلك في تأليف كتابه"تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز" ويدور موضوع الكتاب حول حضارة الغرب، وأهمية التعرف عليها في مجال التقدم

والرقي، ومدى احتياج الشرق إلى هذه الحضارة، وفي ذلك يقول شوقي ضيف: ورفاعة الطهطاوي هو أول صوت مصري اهتم بتصوير حياة الغرب السياسية في كتابه؛ فقد عرف شئون الفرنسيين حين استقر به المقام في ديارهم إماماً للبعثة المصرية الكبيرة الأولى سنة ١٩٢٦م [١].

وفي مجال الأدب والفلسفة كانت الفرصة سانحة للشيخ رفاعة الطهطاوي – وهو في باريس – ليهتم بالدراسات الأدبية الفرنسية فقرأ لكل من(فلوستير) و(روسو) و(راسين) وغيرهم. وفي مجال النهضة التعليمية وإنشاء المدارس على اختلاف اتجاهاتها، يبرز دور الأزهر في دعم المدارس ومدها بالطلاب الذين كانوا نواتها. إذ من المعروف أن النهضة بدأت منذ عصر محمد علي، ولم يكن الناس يفتحون عيونهم وقتها على الأزهر حارثاً وحريصاً على العربية وعلوم الدين، ثم ظهرت الحاجة الملحة إلى العلوم المدنية لتمضي البلاد قدماً إلى الأمام بخطي سريعة، فلم يلبث محمد علي أن أنشأ في سنة ١٨٢٥ مدرسة حربية إعدادية، و واختار تلامذتها أول الأمر من أبناء المماليك ومن غير المصريين فلم يفلحوا، فالتفت إلى المصريين وعلى رأسهم أبناء الأزهر[٢].

ويري محمد عبد المنعم خفاجي أن أدبنا الحديث لم يظهر إلا في أواخر القرن التاسع عشر حيث قام الأدب الحديث في النثر بريادة الإمام محمد عبده، وفي الشعر بريادة محمود سامي البارودي[٣]، حيث برزت شخصيات إسلامية وعربية؛ لتثير ضد العثمانيين لما يرتكبونه من مظالم في حكمهم للبلاد. ويحمل لواء اليقظة في مصر والشرق العربي والإسلامي الشيخ جمال

---

(١) انظر: دراسات في الشعر العربي المعاصر . د/ شوقي ضيف ص١٢٥ ط٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩م.

(٢) انظر: في الأدب الحديث عمر الدسوقي ص١٧،ص١٨.

(٣) انظر: الأدب العربي الحديث د/ محمد عبدالمنعم خفاجي ج١، ص١٩ ،ط١ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٥م.

الدين الأفغاني، ومن بعده تلميذه الشيخ محمد عبده، الذي كان عاملا فعالا في دفع حركة التحرير والثقافة قدما إلى الأمام.

وهكذا جرت العادة بين الباحثين على جعل الحملة الفرنسية على مصر هي بداية العصر الحديث؛ نظراً لأثرها السياسي،غير أنها كانت أسرع البلاد الأوروبية في حملتها على مصر بقيادة (نابليون بونابرت) سنة(١٢١٣هـ – ١٧٩٨م) وهبت مصر مزعورة حين دوت في آفاقها مدافع نابليون، وكان ذلك أول عهدها بالفرنجة منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، فى حربها السابقة ضد الصليبيين. وعرف الفرنسيون مكمن القوة الباقية في مصر والتي يمكن أن يوجهوا إليها ضربتهم، حتى تتم لهم السيطرة الكاملة على البلاد، فنصبوا مدافعهم على جبل المقطم؛ مركزين على القاهرة والجامع الأزهر، ودخل الفرنسيون هذا الجامع العتيد بخيولهم وخربوا خزائن الكتب فيه، كما أعدموا عدد من زعماء المقاومة، الذين وقفوا في وجه جنود الاحتلال، لكن روح المقاومة لم تمت، ولم يهنأ للفرنسيين عيش طوال ثلاث سنوات قضوها في احتلال مصر؛ لم تتوقف خلال مقاومة الشعب المصري التي أرغمتهم على الجلاء عن مصر، وكان ذلك عام (١٢١٦هـ –١٨٠١م). ورب ضارة نافعة؛ فقد تمخضت هذه الحملة الفرنسية عن صحوة عربية إسلامية، وكانت بدايتها مصر التي استيقظت من سباتها.

أجل كان انتباه الشعب المصري على أثر انتهاء الحملة الفرنسية، التفت خلالها إلى كل ما أحضره الفرنسيون معهم من مظاهر الحضارة المدنية، وكان نابليون يطمع أن تكون مصر امتدادا للإمبراطورية الفرنسية، وكان أول تطلع للشعب المصري هو أن يحكم نفسه بعيداً عن حكم المستعمرين، وأن يأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقي ما يساعده على بلوغ مأربه. وكان محمد علي قد جاء إلى مصر ضابطاً ضمن الجيش العثماني، الذي عاون في إخراج الفرنسيين منها، فأحس من المصريين بهذه الروح الحريصة على الاستقلال، والأخذ بأسباب الرقي، واستطاع بما أوتي من ذكاء وطموح أن يكسب حب المصريين، حتى

بايعه المصريون بزعامة(عمر مكرم) بالولاية على مصر، بعد عزلهم لواليهم التركي(خورشيد) وكان ذلك عام(١٢٢٠هـ -١٨٠٥م). وإذا كانت تلك الفترة تعد بدء عصر النهضة العربية الحديثة، بما لابسها من ظروف وأحداث، وانعكس أثرها بالتالي على الحياة الأدبية العربية في العصر الحديث.

ولعلنا نتذكر من هذه العوامل دور الأزهر الرائد، وإنشاء دور الكتب والمكتبات العامة، والتواصل الفعال بين الثقافتين الشرقية والغربية، وواضح كذلك ما لهذه النهضة من أثر كبير في الحياة الأدبية؛ حيث ربطت كذلك بين المثقفين العرب وتراثهم العريق، وجعلتهم على صلة وثيقة بلغة القرآن الكريم، وقضاياهم الثقافية والاجتماعية والسياسية. ولقد كانت كل هذه العوامل في حقيقة الأمر تمهيد وتهيئة لحركة البعث والإحياء التي كان رائدها ذلك الفارس الأصيل الأديب محمود سامي البارودي.

وحقيقة أن أحدا لا ينكر فضل هذه التأثيرات في صهر الشخصية الأدبية المصرية وهذا لا يكون في يوم وليلة، بل يحتاج إلى وقت حتى يؤتي ثماره. وجاءت الثورة العرابية بخطبائها وشعرائها، فكانت بداية حقيقيه للعصر الحديث للأدب في مصر، حيث كانت نقطة الانطلاق في تغيير المفاهيم السياسية، وتعديل المفاهيم الاجتماعية،

كما كانت بالنسبة للأمة المصرية بنوع خاص مولد الشعور بالقومية، ولحق هذا التغيير تغيير آخر في الحياة الأدبية، فكان للأدب من أن يجاري هذه الحياة الجديدة التي تعرفت فيها مصر على شخصيتها [١]. ومن الطبعي أن التحولات الأدبية لا تتم دفعة واحدة بين عشية وضحاها، بل تحتاج إلى سنوات عديدة حتى تشعر بأثر تلك التحولات الأدبية. ومن هذا المنطلق التاريخي الأدبي تبدأ رحلتنا النيلية بالنهضة الشعرية في العصر الحديث وقائدها الأول "محمود سامي البارودي".

---

(١) انظر: الأدب العربي الحديث د/محمد سعد فشوان ص٣٦.

الفصل الأول

نهر النيل عند الشعراء المحافظين

محمود سامي البارودي

أحمد شوقي

حافظ إبراهيم

محمود سامي البارودي

(١٨٣٨-١٩٠٤م)

محمود سامي البارودي، رب السيف والقلم، وباعث النهضة الشعرية في العصر الحديث ولد عام ١٨٣٨م، وتخرج في المدرسة الحربية، وعني بدراسة الشعر العباسي فتأثر به وجرى على أسلوبه، واشترك في الثورة العرابية عام ١٨٨١م ولما فشلت نفي إلى(سرنديب)، التي سميت فيما بعد(سيلان)، ثم أصبح اسمها الآن(سريلانكا) أي جزيرة الزهر، وعاد إلى مصر سنة ١٩٠٠م، حيث توفي سنه ١٩٠٤م.

ويعد البارودي أول من نهض بالشعر العربي من كبوته في عصرنا، بعد إسفاف النظم زمناً غير قصير، شعره مقارب للفحول السابقين؛ جزل الأسلوب، عميق المعاني، متنوع الفنون(١)، وعاش حياته يصول في الحرب، ويهتف بالحرية، وكما كان بطلا من أبطال الجيش، كان رائداً من رواد الشعر العربي. والبارودي هو باعث الشعر العربي في العصر الحديث بلا منازع، بعد أن طالت رقدته خلال العصر التركي، ومن ثم حاكى في أساليبه فحول الشعر العربي وعارضهم في شعره، ومع ذلك لا ينقص التقليد والمحاكاة من مكانته الشعرية؛ لأنه كان يخرج المعاني القديمة في صورة تناسب أحداث عصره، و حين تقرأ شعر البارودي تحس أنك أمام شاعر من الشعراء العباسيين؛ لما نجده من الجزالة والرصانة ومتانة التراكيب، وبسبب هذه الجزالة التي عرف

(١) شعراء مصر. عبدالله شرف ، ص٩٤، ط١ المطبعة العربية الحديثة القاهرة ١٩٩٣م.

بها أسلوب البارودي في شعره خيل لبعض نقاد الشعر أنه فاق من عارضهم من الفحول(١).

والبارودي نسبة إلى إيتاي البارود بمحافظة البحيرة، ثم دخل وهو في الثانية عشرة من عمره المدرسة الحربية، ثم تخرج منها وهو في السادسة عشرة من عمره، وكان يتطلع إلى أن يكون له دور فى حرية البلاد واستقلالها، وكانت ملكة الشعر تسيطر عليه؛ فراح يقرأ كتب التراث ودواوين الأقدمين ،ورأى في أدب القوم تصويراً للحياة بحلوها و مرها، من غزل وفكاهة وحكمة ورثاء ومديح وهجاء، ووصف لكل ما تقع عليه الأعين، وتهتز له الأفئدة، ومن ثم ازداد شغفه بهذا الأدب، وحرص على حفظه وتدوينه، وصارت نفسه تتحيين الظروف المناسبة لتفجر الطاقات الشعرية. ورغم أن البارودي كان شاعراً مطبوعاً على قول الشعر لا ينتزعه انتزاعاً، ولا يتعسف في نظمه، بل تشعر وأنت تقرؤه أنه يجري في لين ورفق غير متكلف فإن البارودي كان مؤمنا بأن الفن تهذيب ورسالة.

والبارودي في شعر الطبيعة له ولع غير متكلف بأشياء ربما تعد من الظواهر في شعره، لا يغفلها القاريء، مثل وصف الليل والنجوم والبرق والمطر والنسيم والزهر والندى والحمام والطير(٢). وكان البارودي يتخير الألفاظ المناسبة للمعاني، فيرق في مجال الرقة "غزل أو وصف منظر جميل"، ويقوي ويجزل في مقام الحماسة والفخر، أو وصف حرب ضروس، أو نحو ذلك.. وفي ذلك يقول عبد الحي دياب: والبحث عن الجديد في شعر البارودي، يخرج بأن الوصف عنده قد اتسم بطابع جديد، خلاصة ما يقال فيه أنه أفرد له قصائد بعينها ولم يأتي به من خلال قصائده عرضاً – كما كان مألوفا في الشعر العربي – بل كان يصف لمجرد الوصف، ومن هنا جاء وصفه للطبيعة

(١) انظر: الأدب العربي الحديث د/ محمد سعد فشوان ص ٢٨،٢٩.
(٢) النيل في الأدب المصري.د/ نعمات أحمد فؤاد ص٣٢٧.

دالا علي إحساسه المرهف، وتذوقه للجمال وعمقه في فهم الوعي الكوني للحياة[١].

ولقد أكثر البارودي من ذكر نهر النيل كمظهر جميل من مظاهر الطبيعة، التي كان مغرما بها إلى حد المصاحبة والمشاركة الوجدانية؛ فماء النيل هي دموع البارودي عند بكائه لفراق الأحبة، ولا غرو في ذلك، فقد تخطف الموت ابنتيه وزوجته وأصحابه وهو في منفاه الذي طال، حتى أورثه السقام والعلل، فكف بصره و ضعف سمعه ووهن جسمه (سبعة عشر عاماً) يقول:

وَمَا زَاد ماءُ النّيلِ إلَّا لأَنَّنِي ... وَقَفْتُ بِهِ أَبْكِي فِرَاقَ الْحَبَائِبِ

فَيا صاحِبي هَلْ مِنْ فَكَاكٍ لِوَاقِعٍ ... بِأَسْرِ الْهَوَى أَوْ مِنْ نَجاةٍ لِهَائِبِ[٢]

يسيطر الألم والحزن علي الشاعر فيختار من الألفاظ ما يعبر به عن هذا الانفعال مثل: أبكى وفراق الأحبة كل هذا يوحي بكثرة الدموع،

ولا يخفى ما في(**وَمَا** زَاد **ماءُ النّيلِ**) من شدة العناء وما في جمع "الأحبة" من دلالة على تزايدها وفي من " أَبْكِي" ستمرار البكاء والحزن. و الخيال وليد العاطفة وهو الذي ينتج الصور التي تشيع الروعة في الأدب و لذلك تتلون الصور بلون العاطفة وهي في قصائده حزينة متألمة فياضة بالألم النفسي. ثم يذكر النيل وروضة المقياس في حنينه إلى مصر:

هَلْ فِي الْخَلاعَةِ وَالصِّبَا مِنْ بَاسِ ... بَيْنَ الْخَلِيجِ وَرَوضَةِ الْمِقْيَاسِ؟

أَرْضٌ كَسَاهَا النّيلُ مِنْ إِبْدَاعِهِ ... وَلِبَاسِهِ الْمَوْشِيّ أَيَّ لِباسِ

فَكَأَنَّمَا هَوَتِ الْمَجَرَّةُ بَيْنَهَا ... فَتَشَكَّلَتْ فِي جُمْلَةِ الأَغْرَاسِ [٣]

---

(١) انظر :التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد عبدالحي دياب ، ص٣٣، ط دار الكاتب العربي للطباعة والنشر١٩٦٨م.

(٢) ديوان البارودي – محمود سامي البارودي– حققه وضبطه وشرحه علي الجارم– محمد شفيق معروف– ص٧١ ، ط دار العودة بيروت ١٩٩٨ م.

(٣) ديوان البارودي، ص٢٨٢.

يبدع البارودي في وصف النيل في معرض حنينه إلى مصر، وكان ذلك الحنين في جملته يطوف بالأحبة ومنازلهم، ويتحسس ما حنيهم، فجاء حنينه حنيناً حسياً أكثر منه معنوياً، كان حنينا يهفو إلى الوجوه ويشتاق إلى الكلمات ويقتات بالذكريات.

وقد زاد الألم سوءا وبؤسا، أن الموت تخطف ابنتيه وزوجته وهو في منفاه – كما سبق أن ذكرت – فبدأ الفناء يدب إليه ورجع إلى مصر عام ١٩٠٠م، ولكن المنية لم تمهله طويلاً فأسلم الروح في عام ١٩٠٤م. وها هو ذا يعلن حنينه إلى مصر وهو في (سرنديب) إحدى جزر الهند قائلاً:

فَيَا مِصْرُ مَدَّ اللهُ ظِلَّكِ وَارْتَوَى ثَرَاكِ بِسَلْسَالٍ مِنَ النِّيلِ دَافِقِ
وَلا بَرِحَتْ تَمْتَارُ مِنْكِ يَدُ الصِّبَا أَرِيجَاً يُدَاوِي عَرْفُهُ كُلَّ نَاشِقِ
فَأَنْتِ حِمَى قَوْمِي وَمَشْعَبُ أُسْرَتِي وَمَلْعَبُ أَتْرَابِي وَمَجْرَى سَوَابِقِي
بِلادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي وَنَاطَ نِجَادَ الْمَشْرَفِيِّ بِعَاتِقِي (١)

فحنينه إلى مصر مختلط بنيلها، وأهلها، وصباه، وأسرته، وملتقى الأصدقاء وملعب خيله، فحنينه دائم وشوقه يزداد يوماً بعد يوم، فمن سرنديب يزداد شوقه إلى مصر:

لَيْتَ شِعْرِي مَتَى أَرَى رَوْضَةَ الْمَن يَلِ ذَاتَ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ
حَيْثُ تَجْرِي السَّفِينُ مُسْتَبِقَاتٍ فَوْقَ نَهْرٍ مِثْلِ اللُّجَيْنِ الْمُذَابِ
قَدْ أَحَاطَتْ بِشَاطِئَيْهِ قُصُورٌ مُشْرِقَاتٌ يَلُحْنَ مِثْلَ الْقِبَابِ (٢)

يرسل بشوقه وحنينه إلى روضة المنيل، بنخيلها وأعنابها، ومناظرها الساحرة، حيث تتسابق السفن إلي النيل، وتحيط به القصور شامخات.

ومرة أخرى يزداد شوقه إلى روضة المنيل فيقول:

يا روضة النيلِ لا مَسَّتْكِ بَائِقَةٌ ولا عَدَتْكِ سَمَاءٌ ذَاتُ أَغْدَاقِ

---

(١) ديوان البارودي ، ص٣٨٩–٣٩٠.

(٢) ديوان البارودي ، ص ٦٧–٦٨ .

ولا بَرِحْتِ مِنَ الأوراقِ في حُلَلٍ مِنْ سُنْدُسٍ عَبْقَرِيّ الوَشْيِ بَرَّاقِ

يا حبذا نَسَمٌ مِنْ جَوِّهَا عَبِقٌ يَسرِي على جَدْوَلٍ بالماءِ دَفَّاقِ(١)

فالشاعر يدعو لمصر ولروضة المنيل بالخصب، وهو دعاء للنيل ويتمنى أن يرجع من منفاه لينعم بنسيمه العبق الدفاق.

لقد حرمه النفي إلى جزيرة سرنديب من التمتع بنهر النيل فيرسل رسالة شوق وحب يعبر فيه عن ظمئه لماء النيل فيقول:

مَتَى تَرِدُ الْهِيمُ الْخَوَامِسُ مَنْهَلاً تَبُلُّ بِهِ الأَكْبَادَ وَهْيَ عِطَاشُ

أَرَى الْغَيْثَ عَمَّ الأَرْضَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَمَوْضِعُ رَحْلِي لَمْ يُصِبْهُ رَشَاشُ

فَهَلْ نَهْلَةٌ مِنْ جَدْوَلِ النِّيلِ تَرْتَوِي بِهَا كَبِدٌ ظَمْآنَةٌ ومُشاشُ (٢)

وهكذا نجد النيل منظراً جميلاً و خلاباً ،ورمزاً للحياة والقوة يجري فيبدو في رونق السيف واهتزاز الثوب الناعم الرقيق وهو تشبيه قديم يقول:

حَبَّذَا النَّيلُ حِينَ يَجْرِي فَيُبْدِي رَوْنَقَ السَّيْفِ وَاهْتِزَازَ الْفِرِنْدِ (٣)

فالبارودي شاعر يقبل على الأدب العربي القديم، وهذا لا يعيبه، فهو يستلهم القديم ويصله بعصره، من معاني وألفاظ وأساليب. وهو زعيم مدرسة المحافظين في الشعر المعاصر، وتعرف بمدرسة الإحياء والبعث، كما تسمى المدرسة الكلاسيكية الجديدة؛ لأنها تقوم على أساس التراث القديم مع التجديد في الموضوعات والمعاني. فليس غريباً أن يترك الأدب العربي القديم بصماته على شعر البارودي من تشبيهات وألفاظ ومعان. ومصر في شعر البارودي: أرض كساها النيل من إبداعه وحنينه إليها مختلط بمظاهر الطبيعة والنيل خاصة، فمصر هي النيل والنيل هو مصر مهما تقدم الزمن وتغير والحنين إلى الوطن ما كان يمكن أن يتصور بدون النيل. وملامح شخصيته واضحة جلية فهو رجل وطني غيور متمسك بالقيم متعلق بنهر النيل ،كما أنه فارس

(١) ديوان البارودي ،ص٣٧١ .

(٢) ديوان البارودي ص ١٢٣

(٣) ديوان البارودي ٩٧

شجاع وشاعر أصيل واسع الثقافة له أثره في بعث الشعر العربي في العصر الحديث.

ويبرز تمسكه بعمود الشعر القديم في: التزامه بوحدة الوزن والقافية، والحرص على اللفظ العربي الأصيل؛ حيث أعاد للشعر ديباجته المشرقة، ومعانيه الشريفة وألفاظه الجزلة الرصينة، وأغراضة الراقية. وقد اتخذ من أئمة الشعر العربي في عصوره الذهبية له نبراساً ينهج نهجهم، محافظاً على النغم الموسيقى وسلامة القافية، والمعنى الواضح، والصورة المعبرة، وأغراض الشعر عند الأقدمين، إلا فيما تقتضيه ظروف البيئة وتطورالعصرالحديث.

أحمد شوقي

(١٨٧٠-١٩٣٢م)

هو أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، ولد بالقاهرة على عهد إسماعيل في عام ١٨٧٠م، في حي الحنفي، ولما بلغ الرابعة ألحق بمكتب الشيخ صالح، ثم بالمدرسة الإبتدائية والثانوية، وتفوق على صغر سنه، ثم التحق بالحقوق، ومكث بها سنتين ومثلهما بقسم الترجمة الذي أنشئ فيها، ولما نال الإجازة أرسل في بعثة إلى فرنسا؛ ليتابع دراسته القانونية ويطلع على ألوان الثقافة الأوروبية، فسافر عام ١٩٨٧م ومكث هناك خمس سنوات تقريبا، حتى نال إجازة الحقوق، كما كانت فرصة له للتعرف على مظاهر الحضارة الأوروبية، كما تمثلها باريس، وكذلك إنجلترا، عندما ذهب إليها في رحلة من هناك. وفي فرنسا شغف شوقي حبا بالمسرح الفرنسي، وفي ذلك يقول محمد عبد المنعم خفاجي:" ومن الأسباب التي أثرت في شوقي وشاعريته، حذقه اللغة الفرنسية، وسعة اطلاعه علي أدب الغرب، وكذلك من العوامل التي لها

أثر واضح في شاعرية شوقي: نشأته في بيت الملك، ومقامه في بطانة الأمراء، ودخوله في أدق الأسباب السياسية في مصر" [١].

وإذا كان شوقي قد رحل بجسده إلا أن صورته لا تزال ماثله في خيال جميع الأدباء، فقد ملك قلوبهم بعبقريته وأسر عواطفهم بشاعريته، وليس هذا بمستغرب، فشوقي آية فذة في تاريخ الشعر الحديث، ولحن ساحر في أذن الفن الطريف وبسمة عذبة في فم الزمن [٢].

اشتهر شوقي وذاع صيته شاعرا أصيلا، حتى جاءته وفود من البلاد العربية؛ تبايعه بإمارة الشعر عام ١٩٢٧م. وتعاونت عوامل عديدة على تكوين شخصيته الشعرية، ومنها موهبته الفطرية، وثقافته الواسعة في البيئات والمجتمعات المختلفة كما كان لأحداث عصره الأثر الكبير في نبوغه الشعري وهو ما أكده محمد عبدالمنعم خفاجه بقوله: "كان للعنصر وللدم داخل في توجيه شعرية الشاعر، وتكوين عقليته، وكذلك البيئة والثقافات التي حصلها، وسمو منزلة الأدب، ورفعة مكانة الأدباء في عصره، وتلمذته على أئمة الأدباء وعلى شعر البارودي وإسماعيل صبري وعبد الله فكري" [٣].

كما أنه واكب ظهور حركات الوعي القومي والثورات التحريرية في مختلف البلاد العربية، كثورة عرابي وسعد زغلول في مصر و ثورة عمر المختار في ليبيا، وقيام الحرب العالمية الأولى، فظل يبدع أكثر من أربعين عاما ما يعرف"بالشوقيات" الذي يتألف من أربعة أجزاء، وكذلك مسرحياته الشعرية التي كتبها من بين عام ١٩٢٩م وعام ١٩٣٢م كمصرع كيلوباترا ومجنون ليلى،

---

(١) دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه د.محمد عبدالمنعم .خفاجي الحلقة الأولي ص٤٧ ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

(٢) انظر: الأدب والحضارة د/ السيد تقي الدين ص ١٦٩-١٧٠ ط دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٨٤م.

(٣) دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه د/ محمد عبد المنعم خفاجي الحلقة الأولي ص٤٦.

وقمبيز، والبيت الكبير، وعنترة والست هدى. والحق أن شوقي وجد الطريق شبه ممهداً أمامه، فخطا بالشعر خطوات متقدمه وجدد في فنونه وأغراضه؛ حيث جاء بعد نهضة الشعر على يد "البارودي" كما أتيح له من ثقافة عصره، وأحداث زمانه، وعوامل تكوينه ما مكنه أن ينهل من ينابيع الثقافات المختلفة، وأن يرصد في قرارة نفسه من المشاهد والصور ما وقف عليه في أسفاره العديدة، فما هو إلا أن تتحرك نفسه وتهتز مشاعره حتى يأتي شعره يحمل أثراً من كل ذلك.

وكان شوقي مولعا بالجمال يهتز له أينما وجده كما كان مولعا بالعظمة، وقد رأى مصر تتميز بالجمال كما تتميز بالعظمة، فأعجب بها والإعجاب أول مراتب الحب بل أحبها حباًعميقا [١].

يقول شوقي:

أحبُّك مصر من أعماق قلبي وحبُّك في صميم القلب نامي [٢]

فتن شوقي بمصر فوصف كل ما وقعت عليه عيناه ولاشك أن النيل شريان الحياة في مصر، حظى من شوقي بما لم يحظ به من شاعر آخر من قبل ولعل شوقي بمطولته(أيها النيل) قد قضي حق مصر، وحق الطبيعة المصرية الخلابة، حيث أفاض في وصف النيل وتجلت شاعريته الفذه وموهبته البارعة المقتدره، وإحساسه المرهف وعاطفته الجياشة التي ألهبتها الغربة.

والذي يعنينا هنا ليس الوصف العابر للنيل، لكن العاطفة التي لون بها شعره، فكثيرا ما تكشف الرؤى المتوغلة داخل مسارب النفس البشرية الضاربة في أعماق الكون عن علامات فكرية تمس جوانب متعددة للحياة، ولعل لرؤاه الفسيحه وتنقلاته الكثيرة والمجتمعات التي عاش فيها، وعلاقاته المتعددة جعله يرى الجمال في كل شيء أبدعه الخالق .

---

(١) في الأدب الحديث .عمر الدسوقي ،ص ١٦٨.

(٢) الشوقيات.أحمد شوقي ج٢ ص٦٥ ط دار الكتاب العربي بيروت–لبنان .

استمع اليه يقول واصفا نيل مصر:

لـي فيكَ مدْحٌ ليس فيـه تكلُّفٌ أَمـلاه حُـبٌّ ليس فيـه تَمَلُّـقُ

يقول شوقي ضيف:" ولا ريب في أن هذه القصيدة أم ديوانه الثانية وإني أقرؤها فأشعر أن من واجب كل مصري أن يكتبها، ويعلقها في غرفة استقباله وفي ذاكرته، وفاءً لهذا الشاعر" (١).

وأول ما يطالعك عن هذه القصيدة ما كتبه أحمد شوقي ذاته حيث يقول:" نظمتها تغنيا بمحاسن الماضي، وتقييد المآثر الآباء، وقضاء لحق النيل الأسعد الأمجد ونسبتها إليك ويقصد الأستاذ مرجليوت مدرس اللغة العربية بجامعة أكسفورد، عرفاناً لفضلك على لغة العرب وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياء علومها ونشر آدابها، وإلقائها كلما طلعت الشمس خلف الضباب دروسا نافعة على أنبل شباب العصر في أعظم جامعات العالم فلعلها تقع إليك، فنتذاكر على النوى تلك الأيام ونتنادم من بعد على بساط الأدب والكلام".

وقد تجلت شاعرية شوقي الفذة وإحساسه المرهف في التصوير فأبدع أيما إبداع في موصوفاته فمن قوله في النيل:

مِنْ أَيِّ عَهدٍ في القُرَى تتَدَفَّقُ؟ وبأَيِّ كَفٍّ في المدائن تُغْدِقُ؟

ومن السماءِ نزلتَ أَم فُجِّرتَ من علْيا الجِنان جَداوِلاً تترَقرقُ؟

وبأَيِّ عَيْنٍ، أَم بأَيَّة مُزْنَةٍ أَم أَيِّ طُوفانٍ تفيض وتَفْهَق

وبأَيِّ نَوْلٍ أَنتَ ناسجُ بُرْدَة للضفَّتَيْن، جَديدُها لا يَخلَقُ؟ (٢)

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث د/ شوقي ضيف ص٥٦ مكتبة الدراسات الأدبية ط٧ دار المعارف ١٩٧٧م

(٢) الشوقيات *أحمد شوقي ص١٦٥ ج٢ ط الاستقامة القاهرة نشر المكتبة التجارية الكبري

يقف شاعرنا أمام نهر النيل يتحسس الجمال والحياة والوجود، يلاعبه تدفق مياه النيل، ولذلك يستهل أبياته بهذا الاستفهام التعجبي، من أي زمن بعيد تتدفق مياهك فتروي الظماء، بكرم وسخاء، ويعاود السؤال لنهر النيل ما هذه المياه؟ أمن السماء نزلت؟ أم من الفردوس نبعت؟ وما هذا الخير العميم؟ أعين تفجرت؟ أم سحابة هطلت؟ أم طوفان فاضت؟ وما هذا السحر الآخاذ؟ فالنيل يستأثر بقدر غير قليل من تأملاته، حتى يفضي له عن جماله الرائق الرقراق ما بين ماء رقراق يتدفق بكرم وسخاء وجمال أخاذ.

والتأمل أداه فعالة تمزق الحجب وتتيح للشاعر عالما، يتراءى له فيه من التساؤلات، يقتحم بها الشاعر عالم الخيال. ومما لا شك فيه أن الشاعر في قصيدته ينبئ عن انبهاره المتنامي بالنيل، وصوره ومنابعه، وأثره في حياة المصريين التي يرسم خياله أبعادها، مستعينا بما قدمه له الواقع من لوحات فنية يعطي أثر ذلك في قوله:

تَسْوَدُّ دِيباجًا إذا فارقتها ... فإذا حضرتَ اخْضَوْضَرَ الإسْتَبْرَقُ
فى كلِّ آونةٍ تُبدِّل صِبغةً ... عجباً، وأَنت الصابغُ المُتَأَنِّقُ
أَتَت الدهورُ عليكَ، مَهْدُكَ مُتْرَعٌ ... وحِياضُكَ الشُّرق الشهيَّةُ دُفَّقُ
تَسْقِى وتُطْعِمُ، لا إناؤكَ ضائِقٌ ... بالواردين، ولا خوانُك يَنفُقُ
والماءُ تَسْكُبُه فيُسْكب عَسْجَدًا ... والأَرضُ تُغْرِقها فيحيا المُغْرَقُ[1]

وإن القاريء لأبيات شوقي يتجلى له مدى حبه لنهر الخير والخضرة والنماء، وإنه يقلب سواد الأرض استبرقا، كما أنه يطعم ويسقى ويكسو بلا كل ولا من، وما ماؤه إلا ذهب مزاب يحيي الموات، ويبعث الحياة في موات الأرض والنبت والشجر، ولا تكاد تنتهي من قراءة أبيات شوقي إلا وتنهمر عليك أبيات أخرى تبرز مدى حب الشاعر لنهر الحياة:

(١) الشوقيات ج٢ ص٦٥-٦٦ .

تُعي مَنابِعُكَ العُقولَ وَيَستَوي مُتَخَبِّطٌ فـي عِلمِها وَمُـحَـقِّقُ[1]

لقد أحتاروا في منابعك؟ ولم ذالك؟ فأنت نهر النيل العظيم الذي هو هدية الله تعالى إلى خلقه، وآية من آيات عطفه وبره ورحمته بعباده:

أَخلَقْتَ راووقَ الدهورِ، ولم تزل بكَ حَمْـأَةٌ كالمسك، لا تَتروَّقُ

حمراءُ فـى الأَحواض، إلاّ أَنـها بيضاءُ فـى عُنُق الثرى تَتَـأَلَّقُ [2]

إنه باق لم ترهقه الأيام ولا السنون، إن ماءه أحمر في الأحواض فقط لكنه في عنق الثرى لآليء تتلألأ.

دِينُ الأَوائِل فيك دِينُ مُروءَةٍ لِمَ لا يُؤَلَّـه مَنْ يَقُوتُ ويَـرزُقُ؟

لـو أَن مخلوقًـا يُؤَلَّـه لـم تكن لِسواكَ مَرْتبـةُ الأُلوهَـةِ تَخْلُقُ

جعلوا الـهوى لـك والوَقـارَ عبـادةً إنَّ العبـادةَ خَشـيـةٌ وتَعلُّـقُ

دانـوا ببحـرٍ بالمكـارِمِ زاخـرٍ عَذْبِ المشـارِعِ، مَدُّهُ لا يُلْحَقُ

مُتقيّد بعهـودِه ووُعـودِه يَجرى علـى سَنَنِ الوفـاءِ ويَصدُقُ

يَتقبَّـلُ الـوادى الحيـاةَ كريمـةً مـن راحَـتَيْكَ عَمِيمـةً تتـدفَّقُ[3]

إن شوقي يعتذر عن القدماء المصريين، فليس شر كما فعلوه، فإذا كانوا قد ألَهوك أيها النيل العظيم وجعلوك ربا لهم فذلك؛ لأنك منحتهم الرزق وأطعمتهم الخير ولا يمنح ذلك الا الله، فما ذلك إلا مروءة منهم، ووفاء لك.. ولم لا؟ ألم تكن صادق الوعد؟ ألم تزل عميم الخير سخيا؟.

ولقد استطاع الشاعر بصدق تجربته وحرارة عاطفته، أن يوظف ملكته الشعرية في اختيار القوالب الفنية من ألفاظ وعبارات وصور وأخيله وموسيقى؛ لتعبر عن هذه العاطفة الجياشة تجاه نهر النيل، قصة حضارة أجدادنا التي استهواها شاعرنا فمضي يرويها على النهر، وهي ليست غريبة عنه فهو صاحبها وعلى يديه نشأت، وفي ربوعه أينعت، وفي ظلاله سمعت، وفي

(١) الشوقيات ج٢ ص٦٦.

(٢) الشوقيات ج٢ ص٦٦.

(٣) الشوقيات ج٢ ص٦٦.

رعايته غدا لها شأن في الحياة والتاريخ، وبينما يبسط ويسرد أحمد شوقي دور نهر النيل في بناء الحضارة المصرية، والتي كانت أمواجه تتمايل وتتعانق يؤكد أنه هو المقصود بالقصيدة فيقول:

فُتِنَتْ بشطَّيْكَ العِبَادُ، فلم يزل قـاصٍ يَحُجُّهُمَ، ودانٍ يَـزْمُقُ
وتضـوَّعَتْ مِسْكَ الدُّهورِ، كأَنما فـي كـلِّ ناحيـة بَخورٌ يُحْرَقُ
وتقابلتْ فيها على السُّرُرِ الدُّمَى مُسْـتَرْدِيات الـذلّ لا تَتَفَنَّـقُ[1]

لقد استطاع شوقي أن يصور لنا عاطفته، وينقل إلينا قسماتها في كل أبعادها وجوانبها في دقة وصدق، وأن يجعلنا نشعر بأن نهر النيل هو الحياة، وكيف لا يكون ذلك؟ ومنه حين تجود عليه السماء، الزرع والنماء والحب والحياة.

نعم لقد أحب أجدادنا نهر النيل، فعبدوه وربطوا أعيادهم به يقدمون له القرابين، ويطلقون له البخور، و يمدون أيديهم له بالدعاء يرجون منه الخير، لا يضنون عليه بشيء حتى بأجمل بناتهم؛ فله كل عام عروس تزف إليه في حفل يشهده القاصي والداني يقول:

مَملوكَةٌ أَعناقُهُم لِيَمينِهِ يَأبى فَيَضرِبُ أَو يَمُنُّ فَيُعتِقُ
وَنَجيبَةٍ بَينَ الطُفولَةِ وَالصِبا عَذراءَ تَشرَبُها القُلوبُ وَتَعلَقُ
كان الزفافُ إليكَ غايـةَ حَظِّها والحظُّ إن بلـغ النهايـةَ مُوبِقُ
لافَيْتَ أَعراسًا، ولافَتْ مَأْتَمًا كالشيخِ يَنْعَمُ بالفتـاةِ وتُزْهَقُ
فـي كلِّ عـامٍ دُرَّةٌ تُلْقَى بِلا ثمنٍ إليـكَ، وحُـرَّةٌ لا تُصْدَقُ
حَـوْلٌ تُسـائِل فيـه كلّ نجيبـةٍ سَبقتْ إليكَ: متـى يحـولُ فتَلْحقُ؟[2]

وهكذا يمضي موكب العروس، عروس النيل المزعومة، تجلى في الفلك وتحتشد الجموع لرؤيتها، وزفتها على الشاطئ، لا يتخلف عن هذا المهرجان أحد حتى فرعون وبناته يشاركون في عرس النهر المنعم، حتى إذا شارف

(١) الشوقيات ج٢ ص٦٨.
(٢) الشوقيات ج٢ ص٦٩.

الموكب نهايته المرسومة العمر غايته المقدرة، وساد الجو رهبة من أجل العروس، التي تواجه حتفها وهي نجيبه بين الطفولة والصبا بعد لحظات، واشرأبت الوجوه وحدقت العيون وتلفتت الأعناق وتعلقت الأنفاس، ألقت العروس إلي النيل بنفسها، ونفيسها، خالعة عليه حياءها وحياتها، وليس أعز من هذين شيئ ينفق [1].

إن رحلة شوقي في قصيدته لا تحد بحدود ولا تنتهي بقيود، ولا يزال يبحث عن الكلمة فتستجيب لندائه، ثم يهيئها عروسا حسناء ويرسلها بحلة حسناء ينظرها القاصي والداني، فيجد لها الجديد حول دلالتها وصورتها وظلالها، ولا يفتأ حتى تراءت الألوان والظلال، ولا ينتهي بريقها عند حد فتلقي بنفسها إلى نيلها. والشاعر أحمد شوقي يأبى إلا أن يصور تجربته مع الحروف والكلمات التي يراها قطعا من ذاته، وجزءا من روحه، وشذى نفسه، ينفث فيها من حياته يحملها طاقة من ضياء، وطاقات من شعوروأحاسيس يوقظ تحت كل حرف من كلمة، وتحت كل كلمة من عبارة طاقة هائلة من الأحاسيس والعناصرالفنية، التي تتبعث فترى من خلالها الأحرف والكلمات صورا طليقة، تتجاوب ونبض الشاعر، ومن هذا الامتزاج بين التجربة والشاعر، والشعر والوجدان تتجاوب الكلمات بعد أن ملئت بطاقات من الحب لنهر النيل شريان الحياة.

ولسنا بصدد صدق القصة أو كذبها، فما يعنينا في قصة عروس النيل أن شاعرنا وظفها في عمله الشعري خير توظيف؛ فوجدناه لايتعامل مع حروف وكلمات بقدر ما يتعامل مع هالات التعبير، تحمل مشاعره لتتجاوب معها من جديد ويحملها بعض ما تكن جوانحه من حب وشوق ووجدان، وكان القارئ شاهد على هذا الفعل وعندما يتحدث شوقي عن الحضارة المصرية ويصورالنيل نراه يخاطبه في إجلال وإكباراستمع إليه يقول:

أَصلُ الحضارةِ في صَعيدِكَ ثابتٌ ونَباتُها حَسَنٌ عليكَ مُخلَّقُ

وُلِدَتْ، فكنتَ المهدَ، ثم ترعرعَتْ فأَظلَّها منكَ الحَفِيُّ المُشْفِقُ

(١) انظر: النيل في الأدب المصري د/ نعمات أحمد فؤاد ص ٣٤٤ .

ملأَتْ ديارَك حكمةً، مأْثورُها في الصخر والبَرْدِي الكريمِ مُنَبَّقُ
وَبَنَتْ بيوتَ العلم باذخةَ الذُّرَى يسعى لهن مُغَرِّبٌ ومُشَرِّقُ[1]

يصورشاعرنا –هنا– نشأة الحضارة على ضفاف النيل في صعيد مصر، صغيرة تربت في مهد النيل، ثم ترعرعت فأحاطها النيل بحبه وإشفاقه، وقد تمثلت عناصر الحضارة المصرية في حكمة المصريين القدماء المسطورة على ورق البردي والمنقوشة في الصخر، كما تمثلت أيضا فى إنشاء بيوت العلم حيث يرد إليها طلاب المعرفة من كافة أنحاء العالم.

ويستخدم شوقي التشخيص في إبداعه الشعري لإبراز عواطفه الجياشة وحبه الشديد لنهر النيل يتخيله إنسانا يخاطبه فيقول:

يدعو له "الحاخامُ" في صلواته ... (موسى)، ويسأَل فيه (عيسى) البَطْرَقُ
يا نيلُ، أَنتَ بطيب ما نَعَتَ "الهدى" ... وبمدْحةِ (التوراةِ) أَحْرَى أَخْلَقُ
وإليك يُهْدِي الحمدَ خَلْقٌ حازهم ... كنَفٌ على مَرِّ الدهورِ مُرَهَّقُ
كَنَفٌ "كَمَعْنٍ"، أَو كساحة "حاتم" ... خَلْقٌ يُوَدِّعُه، وخَلْقٌ يَطْرُقُ
وعليك تُجلَى منَ مَصونات النُّهَى ... خُودٌ، عرائسُ، خِدْرُهنّ المُهرَقُ
الدرُّ في لَباتهنّ مُنَظَّمٌ ... والطيبُ في حَبراتهنّ مُرَقْرَقُ
لي فيكَ مدْحٌ ليس فيه تكلُّفٌ ... أَملاه حُبٌّ ليس فيه تَمَلُّقُ
مما يُحمّلنا الهوى لكَ أَفْرُخٌ ... سنَطير عنه، وهي عندك تُرزَقُ
تَهْفُو إليهم في التراب قلوبُنا ... وتكاد فيه بغير عِرْقٍ تَخْفُقُ
تُرْجَى لهم، واللهُ جلَّ جلالُه ... منا ومنك بهم أَبَرُّ وأَرفقُ
فاحفظ ودائعَك التي استُودِعتْهَا ... أَنت الوفيُّ إذا اؤتمنتَ الأَصدقُ
للأَرض يومٌ، والسماءِ قيامةٌ ... وقيامةُ "الوادي" غداةَ تحلّقُ[2]

(١) الشوقيات ج٢، ص٧٢ .
(٢) الشوقيات ج٢، ص٧٣.

أيها النيل أنت بكل الصفات الجميلة الطيبة حائز فيصفك الكتب المقدسة بأجمل الصفات، فما أطراك وأخلقك بهذه الصفات المباركات، وأنت على مر الدهور كريم مضياف يفد عليك الناس من كل حدب وصوب فتحسن ضيافتهم وإكرامهم،

ومن أجل هذا يهدون إليك شكرهم ويستدعي في السماحة والكرم معن بن زائدة وحاتم الطائي. وقد نظم الشعراء عن مآثرك وأفضالك آيات البيان والحكمة، وأسهمت معهم بهذه المدحة التي أملاها بالحب والوفاء فأنت مهد الحضارة، ومحراب الفن، وعلى ضفافك يعيش أبنائى ينعمون بخيرك، وسوف أتركهم وديعة عندك، فأنت أيها النيل ترجى بهم و إن كان الله – ﷻ – أبر منا ومنك، وهنا تتجلى نزعت شوقي الإسلامية فيرى أن الله – ﷻ – أبر بالأبناء من الآباء ومن النيل، وإن كان ذلك لا يمنعه أن يقرر الحقيقة التاريخية المروية عن المؤرخ اليوناني هيرودوت: وهي أن مصر هبة النيل؛ فحياة مصر مرتبطة بالنيل وموتها رهن بجفاف النيل أو منعه من جريانه، تلك ودائعك أيها النيل.

إن النيل حضارة وفن وعلم وثقافة وحكمة وكرم ووفاء،وحفظ للأبناء، ومن قبل ومن بعد ذلك الوادي الأخضر على جانبيك، فهو الوديعة الكبرى فاحفظ ودائعك، فأنت أيها النيل العظيم وريد الحياة وشريانها[1]. بهذا الحب الصادق أنهى شوقي قصيدته، ومع نهايتها كانت البداية في فتح بوابة النيل على مصراعيها، لينهل منه كل شاعريضرب بمجدافه الفكري في بحار النفس البشرية مستهديا بما يستهويه من شعور عميق تثريه التجارب، ويحمله شراع الوجدان إلى قمم النفس وإشراقاتها وكل شاعر مرهف يطيب له الرشف من رحيق ذكرياته فهي مبعث زاده الذي يعينه على الشعر، وهي أكبر قصيدة

(١) انظر: الأدب والحضارة. د/ السيد تقي الدين، ص٢١٥-٢١٧.

وصفت نهر النيل في العصر الحديث ،و حبه لوطنه مصر وقال فيها ما لم يقله شاعر من قبله .

وقد ولع شوقي بالتاريخ ودراسته، فكان شعره التاريخي صورة نابضة بالحياة وليس مجرد أحداث وأشخاص تسرد، بل كان يتخير من كل ذلك ما فيه موعظة، وله من الملاحم التاريخية قصيدته المشهورة (كبار الحوادث) في وادي النيل واستعرض فيها تاريخ مصر منذ فجر التاريخ، وضمنها نظرات صائبات في كافة الحوادث، وقاربت الثلاثمائة بيت، ولا يوجد فيها إسفاف أو ضعف.

وينتمي شوقي إلى مدرسة المحافظين؛ لأنها تتبع القدامى وتحيي التراث، فألفاظه جزلة قوية، وصياغته محكمة متينة النسيج تشعر القارئ بالفخامة وقوة الرنين الذي يميز الشعر العربي الأصيل، ويمزج بين الأساليب الخبرية والإنشائية، والصور القديمة الموروثة والحديثة مثل (كنف كمعن أو كساحة حاتم)، فهو شاعر وطني غيور متمسك بالقيم النبيلة، واسع الثقافة، محب لنهر النيل شريان الحياة، وكان تجديد شوقي تجديدا يحاول أن يصل حاضره بماضيه، وأن يتخذ ببراعة وصدق ما يجود به أدبه ويقدمه لأمته نموذجا يحتذى به، فهو يمثل ثقافة عصره وحضارة جيله، مع حرص شديد على أن يكون امتدادا للعربية بتراثها العريق.

حافظ إبراهيم

(١٨٦٩-١٩٣٢م)

هو حافظ إبراهيم فهمي لقب بشاعر النيل، ولد عام ١٨٦٩م بذهبية على النيل قرب قناة ديروط، حيث يعمل أبوه مهندساً للري ويشرف على القناطر هناك، توفي أبوه وحافظ في الرابعة من عمره، وذاق مرارة اليتم ثم انتقلت به أمه إلى القاهرة في كفالة خاله، والتحق بالمدرسة الأولية إلى أن انتقل مع خاله إلى طنطا، فأخذ يدرس في المعهد الأحمدي الديني ويتابع الدروس الدينية هناك. وهكذا لم ينتظم حافظ إبراهيم في نوع معين من التعليم، وكان يقضي أوقاته مع طلاب المعهد الأحمدي يقرأ بعض كتبهم، ويطارحهم الشعر ويذاكرهم الأدب. وملّ خاله عدم انتظامه في المدارس وأحس حافظ بهذا الملل فقال يعاتب خاله على تبرمه:

ثقلت عليك مؤونتي إني أراها واهية

فافرح فإني ذاهب متوجه في داهية

وقصد مكاتب المحامين حيث كان يأنس في نفسه القدرة على الخطابة والعمل بالمحاماة لكنه لم يلبث أن تركها، واتجه إلى القاهرة؛ ليلتحق بالمدرسة الحربية ويتخرج فيها سنة ١٨٩١م ويعين في وزارة الحربية، ويظل فيها نحو ثلاث سنوات ثم يتركها إلى وزارة الداخلية، ويمكث بها نحو عام.

ثم يعود الشاعر ثانية إلى الحربية وينضم إلى الحملة المتوجهة إلى السودان بقيادة كتشنر، ولا يرتاح حافظ إبراهيم إلى الحياة هناك، فيكتب إلى الشيخ محمد عبده ليتوسط له في الرجوع إلى مصر ويحدث تذمر في الجيش، وكان من ضمن المتذمرين حافظ ابراهيم فيحاكم ويحال إلى الاستداع عام ١٩٠٠م، ثم يحال على المعاش.

وهكذا كانت حياته حتى سن الثلاثين كلها قلق واضطراب، ولكنه مع كل ذلك لم يستسلم فقد كان يعتد بشخصيته، وكثيرا ما كان يتغلب على كل ما يلاقيه من معاناة بروح فكهة، كما اتصل برجال السياسة والفكر والدين وزعماء

الإصلاح والنهوض بمصر والعالم العربي والإسلامي من أمثال: محمد عبده ومصطفي كامل وسعد زغلول وقاسم أمين وأفسحوا له بيوتهم ومجالسهم، وكانت تعجبهم فيه ميوله الأدبية ونوادره الطريفة مع عذوبة حديثه وغيرته على وطنه وأمته، ورغبته الأكيدة في أن تنال أمته حريتها واستقلالها، وأن تستعيد الشعوب العربية كرامتها وأمجادها(١).

أحس حافظ ابراهيم بشعبه، وبوطنه إحساسا ملك عليه مشاعره، ولقب بشاعر النيل لأنه ولد على صفحة كما يقول (أحمد أمين) في تقديمه لديوان حافظ ابراهيم، أو لأنه كان يحب مصر ويعشقها، فكان يمثل شعور عامة المصريين، ولقد ذكر كلمة "النيل" في ديوانه إحدى وتسعين مرة، يلجأ إليه كلما ألمت بالوادى نازلة أو تعرضت الأمة لكارثة فإليه يشكو، وبه يفخر، ومنه يستمد الثورة، فالنيل هو مصر ومصر هي النيل، يقول في قصيدة ذكرى وتشوق:

بِالجانِبِ الغَربِيِّ فَو ... قَ النيلِ وَالدُنيا نَعيمُ
أَيّامَ يَعرِفُنا السُرو ... رُ بِها وَتُنكِرُنا الهُمومُ
أَيّامَ نَلهو بِالظِبا ... ءِ وَفي مَسارِحِها نَهيمُ
لا أَنتَ تُصغي لِلعَذو ... لِ وَلا أُبالي مَن يَلومُ (٢)

فالنيل مرآة انعكست عليها السماء بنجومها ،فهوت إلى الأرض تقوم على مياه النيل، فكونت غلالة بيضاء تشبه الغيوم، وأصبحنا وكأننا نسير على السماء ثم نراه عاتبا على النيل، فيحمله مسئولية ظمأ شوقي في الأندلس فيقول:

عَجِبتُ لِلنيلِ يَدري أَنَّ بُلبُلَهُ ... صادٍ وَيَسقي رُبا مِصرٍ وَيَسقينا (٣)

---

(١) انظر: الأدب العربي الحديث د/ محمد عبدالمنعم خفاجي ج١ ص٩٣-٩٤ ط١ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٥م

(٢) ديوان حافظ ابراهيم، تقديم أحمد أمين. ج١،ص٧٣-٧٤ . دار العودة للصحافة والطباعة والنشر .بيروت ١٩٧٣م.

(٣) المصدر السابق.ج١، ص١٨٧.

كما نراه يحمل النيل مسئولية قلة الزاد وغلاء الأسعار، فيخاطبه بأسلوب اللوم والعتاب:

أيهَا النّيلُ كيفَ نُمسِي عِطاشاً في بلادٍ روّيتَ فيهَا الأنامَا (١)

وعندما أراد أن يسخر من الإنجليز قال:

حَوّلوا النيلَ وَاِحجُبوا الضَوءَ عَنّا وَاِطمِسوا النَجمَ وَاِحرِمونا النَسيما(٢)

النيل هو مقوم من مقومات الحياة في مصر، ولا يملك أحد المساس به إلا على سبيل السخرية أو التعجيز.

وعند الشدائد والمصائب والكوارث لايجد غير النيل، يبث إليه حزنه ويشكو إليه ألمه ولوعته، ففي موت الزعيم الوطني مصطفى كامل يوجه حديثه إلى النيل:

فَيا نيلُ إن لَم تَجرِ بَعدَ وَفاتِهِ دَماً أَحمَراً لا كُنتَ يا نيلُ جارِيا

وعندما هدتنا الفجيعة بموت الثائر محمد فريد يخاطبه:

أَيُّها النيلُ لَقَد جَلَّ الأَسى كُن مِداداً لي إِذا الدَمعُ نَفِد (٣)

وإذا أراد البلوغ بالممدوح الثريا خلع عليه تحية النيل:

وجَاوت مرآةُ العروضِ صقيلةً للنيلِ فاستوجبت شكر النيل(٤)

وبعد شكر النيل لا شكر

ولما أراد أن يسمو بحاكم وادي النيل (الملك فؤاد) ألبسه تاج النيل:

لَم يَرتَفِع في الشَرقِ تا جٌ فَوقَ تاجِ النيلِ مَجدا(٥)

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم تقديم أحمد أمين. ج ١ ص٣١٧،دار العودة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٣م.

(٢) المصدر السابق . ج ٢ص١٠٨.

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٣.

(٤) المصدر السابق .ج ١ ، ص ١٤٥.

(٥) المصدر السابق. ج ١ ص١٣١.

وعندما أراد تهنئة الخديوي عباس الثاني بعيد الأضحى قرن تهنئته بالنيل، فهو لسان حال الأمة:

نَظَرتَ لِلنيلِ فَاهتَزَّت جَوانِبُهُ وَفاضَ بِالخَيرِ في سَهلٍ وَوِديانِ
يَجري عَلى قَدَرٍ في كُلِّ مُنحَدَرٍ لَم يَجفُ أَرضاً وَلَم يَعمِد لِطُغيانِ
كَأَنَّهُ وَرِجالُ الرِيِّ تَحرُسُهُ مُمَلَّكٌ سارَ في جُندٍ وَأَعوانِ[1]

وهكذا مسئولية النيل في شعر حافظ مسئولية جادة ذات تكاليف، وكثيرا ما تختلط بمسئولية مصر. ولم ينظر حافظ إلى النيل نظرة فنية شأنه في ذلك شأن شعر الطبيعة عنده، فلم يهتم بالطبيعة المصرية، فلا النجوم في السماء، ولا الرياض في الأرض، ولا النيل العظيم، ولا الصحراء ألهمت حافظ شيئا. ونلتمس له العذر، فلا يعاب حافظ في ذلك ولا يعاب شعره؛ لأن طبيعة حافظ كانت مخالفة تمام المخالفة لمظهره الخارجي، لقد كان مظهره الخارجي ضحوكا مرحا لا يراه الرائي حتى يضحك من ضحكه، ولا يكون في مجلس حتى يملأه سرورا وضحكا، ولكنه في أعماق نفسه حزين، هذا الطبع الحزين يبعث عواطف حزنه ويحمل على الإجاده فيها، فتوافق طبعه، وشكوى الزمان والرثاء، والبكاء على الأمة، وعلى الشرق ونحو ذلك.. [2]

وكان حافظ في شعر الطبيعة من شعراء العصر الذين ساروا في نطاق البارودي ومذهبه في الشعر، وتقبل طريقته منذ أن تفتحت أكمام شاعريته، فتأثر بما استظهره من الشعر الرصين، ثم ابتكر في شعره نهجا تميز به عمن يعاصرونه من الشعراء، أسلوب ساحر، ومعنى جميل، وألفاظ عذبة وعبارة رشيقة، وخفة موسيقى، ولم يكن حافظ ولا شعره، بخافيين على أحد، وكانت قصائده تسير في كل أفق، ويشدو بها كل إنسان، كما كان لشعره صلة بالقلب، ومودة في النفس، يدخل إلى الوجدان بلا استئذان كما يقولون، وكأنه

(١) ديوان حافظ إبراهيم تقديم أحمد أمين ،ج١ ، ص٢٩.
(٢) انظر: مقدمة ديوان حافظ ابراهيم، تقديم أحمد أمين ،ص٣٨.

أصداء موسيقى قوية تلزمك أن تنصت لنغمتها وأنت مأخوذ بحلاوتها وبجمالها وبرقتها وبروعتها [١].

ولو أن حافظ اتّجه نحو شعر الطبيعة المصرية، لكان أثره في الأدب عظيما وخصوصا وأن وصف الطبيعة، والتغني بها يدل على إحساس شديد بمحبة الوطن، والاعجاب بكل ما فيه. ويومها كان سيجد آذانا صاغية وقلوباً واعية، لما كانت تعانيه مصر من احتلال إنجليزي. خاصة وأن عاطفة حافظ في شعره تمتاز بعمومها وقوتها، وإن شئت فقل وجدتها، فلم نعرف شاعرا عربيا قبله ولا معاصرا له، أفاض في العاطفة الوطنية والاجتماعية إفاضته[٢].

وعلى أيّة حال فقد استطاع حافظ أن يأخذ لنفسه مكانة ممتازة بين شعراء عصره أمثال: أحمد شوقي، وإسماعيل صبري وخليل مطران؛ وذلك بفضل تغنيه بأماني قومه، وبما حقق لشعره من ديباجه نقية ناصعة دلت علي موهبة شعرية، ولعل إكثار شاعرنا من حفظ القديم هيأ له هذا الأسلوب المتدفق الذي تتجلي فيه العناية بالألفاظ، والمحافظة على القصيدة العربية في إطارها القديم، والبقاء على تقاليدها الشعرية، والالتفات إلي الموسيقى التي تحفظ للشعر العربي رونقه وإشراقه. ومما يؤخذ على مدرسة المحافظين اهتمامهم بشعر المناسبات والمجاملات الاجتماعية؛ ولعل السبب في ذلك يرجع إلى شدة انشغالهم، وارتباطهم بقضايا مجتمعهم، ومع ذلك فإن الشعراء المحافظين كان لهم الفضل الكبير في إعادة أمجاد الشعر العربي، وبعث الحياة فيه.

(١) انظر: الأدب العربي الحديث . د/ محمد عبدالمنعم خفاجي ص ١٠٢ ج١

(٢) انظر: مقدمة ديوان حافظ . أحمد أمين ، ص٢٨-٢٩.

الفصل الثاني

نهر النيل عند الشعراء المحدثين

عباس محمود العقاد
أحمد زكي أبوشادي
علي محمود طه
عبدالمنعم عوّاد يوسف

عباس محمود العقاد

(١٨٨٩-١٩٦٤م)

ولد العقاد في مدينة أسوان عام ١٨٨٩م، وعاش حياته معتزا بنفسه وكرامته، وقد اعتاد على المطالعة منذ حداثة عمره حتى أصبحت له دينا لا يملك منه خلاصا، فلا غرو أن تتجلي شخصيته كأنه موسوعة عربية.

وتعد مدرسة الديوان من المدارس الشعرية الجديدة بعد مدرسة البارودي، وجيل الشعراء المحافظين، وتزعم حركة التجديد فيها كل من عبد الرحمن شكري وإبراهيم عبد القادر المازني، و عباس محمود العقاد، قام هؤلاء الثلاثة بدور كبير من أجل نشر حركة التجديد في الشعر العربي الحديث، ولقد سموا مدرستهم بالديوان نسبة إلى الكتاب النقدي الذي ألفه كل من المازني والعقاد، وأوضحا فيه اتجاههما الجديد كما نقدا فيه كل من شوقي وحافظ وزميلهم عبد الرحمن شكري وكذا مصطفى لطفي المنفلوطي، وقد غير هذا الكتاب من نظرية عمود الشعر القديمة. فأخذت بذلك ضجة كبيرة في كل من مصر والعالم العربي، ومع أن عبد الرحمن شكري قد فارق زميليه المازني والعقاد ليستمرا وحدهما في مدرسة الديوان، فإنه يعد رائد هذه المدرسة والمنادي بحركة التجديد فيها.

ويرى العقاد أن بعد الشاعر عن التكلف يمثل قمة الصدق في التعبير عن التجربة الشعورية، التي تجيش في نفس الشاعر، وذلك حين يقول" فقدرة الرجل على أن يجمع بين أحكام الصناعة وبشرف العبارة، وصدق الإبانة عن كل

سريرة من سرائره وكل لون من ألوان طبعه من غير سخف ولا استرخاء ولا تكلف هي عنوان الحياة في تلك الشخصية وعنوان القوة الماضية في تلك الشاعرية"[١].

ولقد كان العقاد عبقري موهوب، وأديب مفكر، وناقد ذكي، وكاتب عصامي وشاعر مفلق، كان– رحمه الله – شاعرا مجيدا يجمع بين قوة العاطفة وعمق الفكرة، ظهر في الميدان الأدبي والفكري والسياسي في أوائل القرن العشرين، واشترك في مختلف الحركات الوطنية والفكرية؛ لأنه كان يؤمن بالحياة والعظمة والبطولة. وهو أحد ثلاثة نشأوا في بيئة أدبية واحدة، وزميلاه هما عبد الرحمن شكري، وإبراهيم عبد القادر المازني، تدارس هؤلاء الرفاق الأدب معا، وواظبوا على المطالعة، واتجهت آرائهم الأدبية، ونوازعهم الثقافية والفكرية اتجاها جديدا[٢].

وأروع ما في حياة العقاد أنه صنع نفسه بنفسه، ذلك أنه لم يظفر في مطلع حياته بقسط كبير من الدراسة المنظمة، ولكنه بروحه العصامية العظيمة تمكن من الاطلاع على الأدبين العربي والإنجليزي اطلاعا واسعا، حتى قبل أن يلقي عبد الرحمن شكري وابراهيم المازني، ولقد تأثر كل منهما بالآخر ولكن الفضل في نجاح العقاد في ما بعد همته العالية ونفسه الطموح الوثابة المتطلعة إلى السمو والإبداع في الأدب والفكر والشعر. وثقافة العقاد مزيج من العربية الصادقة والإنجليزية القويمة التى أثرت فى شعره، فجعلت منه شاعرا واسع الخيال، رائع الافكار غواص في طلب المعاني[٣]. وكان العقاد مولعا بالتجديد والابتكار، والباعث له في ذلك هو الحب، وصدق العاطفة وجمال الطبيعة،

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، عباس محمود العقاد ص١٤٠ ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة ١٩٧٣ م.

(٢) انظر: الأدب العربي الحديث د/محمد عبدالمنعم خفاجي ، ج١ ص ١٨٠–١٨١.

(٣) انظر: رواد الشعر الحديث .د/ مختار الوكيل ص٥٥:ص٧١ ، ط٢ .دار المعارف.

وتحبيب القيم المعنوية والاعتزاز بالنفس، وتخليد مظاهر البطولة التي حررته من ربقة العبودية وأبعدته عن التملق والتكسب(١).

ومن المعروف أن مطران كان يتزعم حركة الدعوة إلى الشعر العربي في الأدب الحديث، في حين أن مدرسة شعراء الديوان تدعو إلى الجانب الذاتي، فشعرهما هو شعر الوجدان الذي يعبر عن ذات الشاعر وشخصيته أبلغ التعبير، وقد أدخل المازني في تعريف الشاعر العاطفة والخيال، كما أتجه العقاد إلى شعر الفكرة، كذلك اتخذ شكري شعارا له على الجزء الاول من ديوانه الذي سماه(ضوء الفجر) وهو اسم رومانسي وكان الشعار الذي اتخذه قوله:

ألا يا طائرَ الفِردو سِ قَلْبي لك بستانُ (٢)

إذن فقد حمل كل من شكري والمازني والعقاد لواء الثورة ضد الشعر العربي الكلاسيكي والشعر القديم، كما حاول ثلاثتهم هدم زعماء الشعر العربي المعاصرين من المحافظين، ومن سار سيرهم وكتبوا في ذلك فصولا نقدية عنيفة سجلها لهم تاريخنا الأدبي، وكانت وثائق لها أهميتها في أدبنا الحديث.

والطبيعة عند العقاد هي ينبوع الشعر الحق، و مصدر الحياة الصحيحة ومن هنا نفذ في صميم الحياه، وذلك بفضل تأمله الدائم في الطبيعة، كما صور مناظرها المختلفة في قوة وصدق بارعتين بذوق فطري(٣). ولقد صنع النيل تاريخ مصر وشيد حضارتها وخلع على أرضها ألوان السحر فعرفت الجمال واهتدت إلى الفن بما قبست من ألوانه في التصوير، وسجلت أنغامه

---

(١) انظر: الأدب العربي الحديث. د/ محمد عبدالمنهم خفاجي ج١ ص١٨٢.

(٢) انظر: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسة د/ محمد عبدالمنعم خفاج ص ٢١٧-٢٢٩.

(٣) النزعة الإنسانية في شعر العقاد.د/عبدالحي دياب ص٢٩ ط دار النهضة العربية ١٩٦٩م.

في الموسيقى وصاغت آلاه في الشعر، وسبحت بنعمائه في القصيد ورتلت بإسمه الأناشيد[١].

واذا كانت العودة للطبيعة، والتعاطف معها، والهيام بها، من سمات الرومانتيكيين عندما فشلوا في مواجهة الواقع، فهربوا إليها، ومما لاشك فيه أن الغربة النفسية التي كانت تعايش عواطف العقاد، كانت أحد الأسباب في هيامه بالطبيعة، فارتمى بين أحضانها ليخلو إلي ذات نفسه، فأخذ يضرب في صحراء (أسوان) وجبالها، ويغيب عن نفسه في فسيح خياله حيث الفضاء الطلق. لذلك خلع علي الطبيعة إحساسه وفكره، وناجاها واستلهمها، لأنها تمثل لديه ينبوع الشعر الحق، ومن ثم صور مناظرها المختلفة في قوة وصدق، بذوق فطري سمح، فتحدث عن الشمس والرياض والثمار، كما تحدث عن رقة الأنسام، وأنغام الطيور، وجمال الورود والزهور[٢].

والنيل وهو مظهر من مظاهر الطبيعة حظي من العقاد بكثير من التجارب الشعورية الكاملة، فقد تغنى بالنيل في قصائده (أنس الوجود) و(الشتاء في أسوان) و(النهر النائم) و(النيل الغاضب) و(حلم المقرن)، وكذلك بعض الأغاني التي أنشدتها الآنسه/نادرة في رواية من روايات الصور المتحركة. وحب العقاد للنيل وليد نشأته عليه، فهو جزء من طفولته مرتبط بحلقات عمره، وأحداث حياته، ومن هنا كان حبه له راسخا عميقا في نفسه وإحساسه وتفكيره.

ويتأكد هذا الإحساس في قصيدته (علي النيل):

لذ المطاف بشاطئ المصطاف وصفا اللقاء علي النمير الصافي

وحدا الحزير بنا فكان حداؤه نعم الغناء لنا عن المجذاف

---

(١) النيل في الأدب الشعبي د/نعمات أحمد فؤاد.ص٧ ط دار الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٢) انظر مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور. العدد الخامس .الغربة النفسية في شعر العقاد. د/ رزق داود ص ١٧٢ : ١٧٥.

ليس الظلام من الضياء غلالة فكأنه خاف وليس بخاف
والبدر منفرد الجلالة سادر متنقل كالناغس الطواف (١)

تبدو عاطفة الشاعر حية نابضة حيث ينفعل مع موضوع النيل، ومن ثم فهو يمثل جيله وبيئته أتم تمثيل، وما عبر عنه عبد القادر القط عند شعراء الديوان بقوله:"إن عكوف هؤلاء الشعراء على استبطان أنفسهم، والاستجابة إلى دواعي عواطفهم وتجاربهم الذاتية، كان لا بد أن يهيئ لهم شيئا من الأصالة والحداثة داخل ذلك الإطار التقليدي العام، وفي ثنايا تلك الصور والتعبيرات المستحدثة من التراث، وهي صور على قلتها تبشر بكثير مما انتهت إليه الحركة الوجدانية بعد ذلك إبّان ازدهارها ولعل أبرز مظاهر التجديد عند هؤلاء الشعراء تجسيمهم لعواطفهم الحادة وشعورهم المرهف(٢).

هنا على النيل تطل الذكريات القديمة، التي علقت في ذهن الشاعر عن لقائه بمحبوبه.. على الشاطئ، حيث يطول السهر وسط خرير المياه.. ففي ضوء القمر، وعلى شاطئ النيل، يحلو اللقاء، ويعذب الحديث، ويطول السير. والعقاد صور فأجاد، فالضوء خافت، والمكان هادئ، لا يقطعه إلا خرير المياه التي كانت هي الونيس، وهي الدافع على السير.

ويستمر الشاعر في مناجاته للنيل:

أيهاً أبا الأنهار ليس بنافع خوف التفرق والحبيب مواف
ونود لو تغني الودادة آسفاً رجعى الزمان ولا رجوع لعاف
سيطول أيام الصدود وسؤلنا لك عن مواقع هذه الألطاف
واحفظ لديك وديعة من صفونا مأنوسة الذكرات والأطياف
أوفى علينا من سماء جماله فاحلم بطلعته وماؤك غاف
فرعون لم يحمل عليك نظيره والبحر لم يحرزه في الأصداف

---

(١) ديوان العقاد ص٢٢٦.

(٢) انظر: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د/ عبد القادر القط ص ١٨٥ – ١٨٦، ط٢ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٤٠١هـ –١٩٨١م.

إيهاً أبا الأنهار فوقك شادن يشفي الغليل وأنت لست بشاف[١]

أبا الأنهار.. (اسم قديم للنيل جاء على لسان فرعون "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي"..يتقرب الشاعر إلى النيل، ويخاطبه ويطلب منه حفظ تلك الذكريات العزيزة، الغالية، التي قضاها مع من يحب على شاطئه؛ لأنه سيطول سؤالنا لك عن هذه الذكريات أيام الصدود.

ثم يعود الى النيل فيشهده:

فاشهد علي وانت اقدم ضائف يا نيل اني أسعد الأضياف

الشاعر يعيش أوقات سعادته، فالنيل والشاطئ، والذكريات تتعانق لتحيي تلك الايام الخوالي.

وكذلك ما يحمله النيل من أسرار، وأمجاد أجدادنا العظام:

إني سعدت بقدر ما استرجعت لي ... يا نيل من حقب ومن أسلاف

دهر قد انبسطت عليه ساعة ... فاستأنفته أحسن استئناف

وصلت حديث زماننا بقديمه ... وصل الصحيفة نائي الأطراف

وبدت لنا صور العصور كأنها ... رسم على صفحات مائك غاف [٢]

العقاد مشغول الحس والتفكير بالتاريخ وأحداثه، فقد أدخله مع النيل في القصيدة، وليس هذا بدعا، فأنت أيها النيل، الذي صنع تاريخنا، وأنت الذي شيد حضارة أجدادنا يحتفلون بك على ظهر كل ذات شراع، تتهادى على مياهك، وأنت يا نيل الذي حفظت لنا وللدنيا كلها علوم مصر وآدابها في لفائف البردي الذي أنبته.

و يقف العقاد وقفة، ليست قصيرة، يتأمل النيل ويذوب فيه:

غنى الصحاب وكان حسبي مسمعا تغريد قلبي الخافق الرفاف

ودنا يعلمني وأكثر فنه حسن يفوت صناعة العذافي

---

(١) ديوان العقاد ص٢٢٧ مطبعة وحدة الصيانة والا نتاج بأسوان ١٩٦٧ م

(٢) ديوان العقاد ص٢٢٧ مطبعة وحدة الصيانة والا نتاج بأسوان ١٩٦٧ م.

يشدو ويعذلني علي أني امرؤ عن درسه وغنائه متجاف (١)

حسنك ألهم الشعراء، فعزفوا على القيثار أعذب الألحان، أما أنا فقصائدي فيك خفقات قلبي، وليس هذا جفاء، فحسنك بهر الجنان، فأعجز اللسان.

عذرا معلمنا فإنك واصف يلهي المصيخ له عن الأوصاف
في حسن وجهك للضمائر شاغل عن أحرف تشدو بها وقواف
لو لم تكن عيني تراك لأثبتت أذني جمالك في صميم شغافي
بكل جارحة لحسنك مسلك يعطي النفوس عطية الإسراف (٢)

فمعذرة أيها النيل العظيم، إن كنت قد شغلت عنك، تلك أمور لا ذنب لي فيها، فحبك ملئ القلب والسمع والبصر، وحبي لك يستنطق كل جارحة فتشدوا بآيات الحكمة والشعر.

ناظر بواضح ك الطبيعة ينكشف ماكان منطوياً عن الكشاف
ما استقبلتك بوجهها إلا جلت أضعاف زينتها على أضعاف
انظر فهل تجد المروج كعهدها من قبل في الحدقات والاناف
وهي السماء أم ارتقت أجوازها في النور ألا فاعلي آلاف (٣)

من يلوم أجدادنا إن عبدوك فأنت الذي خلصت على أرضنا ألوان السحر من خصبك.. خضرة غناء، وألوان في الرياض، بفضلك عرفنا الجمال، وبجمالك اهتدينا إلى الفن و بفنك تنوعت الطبيعة من زهور وطعوم وعطور.

وبعد هذا. لا تكل ولا تمن، ولا تهرم، عمرك كله شباب، ومواسمك كلها ربيع أخضر، لا تعرف الغروب، ولا فائده تجنيها إلاحبك للكرم وللعطاء.

لو كان حظك من جمالك حظنا أوجفت تطلب صحبتي إيجافي
أو كانت الدنيا تروقك بعض ما راقت بحسنك كنت خير مصاف
فاسمح بتبرك نتخذ من صوغه وشيا عليها سابغ الأطراف

---

(١) ديوان العقاد ص٢٢٨ مطبعة وحدة الصيانة والا نتاج بأسوان ١٩٦٧ م.
(٢) ديوان العقاد ص ٢٢٨-٢٢٩مطبعة وحدة الصيانة والإنتاج بأسوان ١٩٦٧م.
(٣) السابق ص ٢٢٩.

واجعل رداء صباك شعرا خالدا تصبح له الآباد يوم زفاف (١)

لقد منحتنا الكثير، وأعطيتنا الخير الوفير، ولم تطلب درهما ولا دينارا، ومازلت تمضي في ذخرك، وتنساب في سيرك، شامخا معتزا بنفسك، مطمئنا اطمئنان الواثق من قدرته، ولكن حظك قليل، فلم يؤدوا إليك شكرا، ولم يوجهوا إليك اهتماما، فاقبل مني وأنا من أبناء واديك هتفة إعجابي بك أصوغها شعرا..

يامن عرفت الجود كيف وجدته بعد اشتباه الجود بالإسفاف

لا تخش الحافا عليك فما نرى ضوء النهار يزيد بالإلحاف

فامنح قلبك كل حين منحة يبق الكثير وراء الاستنزاف

واعجب لقصد في الغرام يسنه قلب يبيع العمر بالسفساخ (٢)

تعطي بلا حدود، وتجوز بلا صدود، تفيض فتخصب لنا جديدا، حتى أصبح واديك موطنا للسعادة، وللخير والرخاء، كل هذا وأنت راض لا تخشى نفاذا أو إلحافا ولا تبغي جزاء أو شكورا، فلا تحرمنا فضلك وفيضك، وقليلا منك يحيي موات الأرض، وتبعث النبات من التربة، حتى هذه الكلمات التي يخفق بها قلبي أنت صاحبها.

وهكذا فالنيل عند العقاد شيء عظيم مهيب، حامل للأسرار، واهب للحياة، مصدر خير وبركة، وهذا الإحساس وليد نشاته عليه فتأثر بأمواجه وغضبه، فكان له التأثير في حياته وأدبه. وأحيانا يأتي النيل رمزا للمحبوب ..أي محبوب، كما في مقطوعته (النيل الغاضب):

أساهم يا نيل لست أدري أم ناقم يا نيل طول هجرى

فرب شهر مر بعد شهر وعام سوء بعد عام شر

ولا بشفع زرت أو بوتر

لاقيتني يا نيل والحبيبا كما تلاقي طارقا غريبا

---

(١) ديوان العقاد، ص ٢٢٩.

(٢) ديوان العقاد، ص٢٣٠ مطبعة وحدة الصيانة والإنتاج بأسوان ١٩٦٧م.

وزرتنا كيدا لنا مريرا أغريت يا نيل بنا الرقيبا
يكاد يحصي سره وسري (١)

أيها المحبوب.. أيها النيل.. لماذا العبوس والتغير.. أتلك طبيعتك وقد أحسست بهجري، وطول صدودي، لقد مرت الأيام، وانقضت السنون، ولم أجد في بعدك خيرا، فالعيش بجانبك يحلو وفي البعد عنك مرارة ووحشه.

وكيف يانيل إليك حجي ولم أكن أخاف أوأرجى
بل كيف يهديني اليك نهجى وقد هوى نجمي وظل برجي
وعز قرباني ولاح عذري
ذاك الذي كنت معي تراه غيري إليك ربما دعاه
فقد هداني كاهن سواه إليك يرعاني كما أراه
بعد ضلال في الهوى وخسر (٢)

العقاد –هنا– ساخط برم بالحياة، ولكن سخطه وبرمه لا يذهبان برشاده، وهداه، وفلسفة العقاد –هنا – هادئه رغم ثورتها الكبيرة(كيف يهديني إليك نهجي)، وذلك بعد أن اتسعت الفجوة بين الآمال والطموح يقول:

يا نيل أما الآن فالمزار عندي له المنسك والشعار
فلا يغيب في الدجى النهار أو ينجلي عن بدرنا السرار
إلا سرينا لك حين يسري
يا نيل فاشعل حولنا العيونا إذا وردناك مسبحينا
تلك عيون تكره السكونا ومن يحبونا ويسعدونا
لا رضيت عنب ولا عن بدري (٣)

---

(١) خمسة دواووين للعقاد (هدية الكروان) ص ٤٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٢) خمسة دواووين للعقاد (هدية الكروان) ص ٤٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٣) خمسة دواووين للعقاد (هدية الكروان) ص ٤٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م

وسرعان ما هدأت نفسه، فأقبل على النهر بكل حبه، يستهديه ويسترضيه، ويعده بالوصل الدائم، فلا هجر ولا بعد ولا قطيعة. أما أنت أيها النيل.. كن دائما الحصن الأمين، والدرع الواقي، واشغل أعدائي، واصرف عيونهم، عني لأنهم حاقدون كارهون الخير.

وعكوف العقاد على ذات نفسه، ومحاولة نحت هذه الصورة وأمثالها. ينم على عمق في الفكر، وتمكن من اللغة، و تكرار النداء (يا نيل) إشارة على حبه وعشقه وولعه وشوقه. ولقد استطاع الشاعر – العقاد– أن يصور لنا هذه العاطفة، وينقل لنا قسماتها، بكل أبعادها، وجوانبها بكل جزئياتها، في دقة وصدق، وأن يجعلنا نشعر بل نحس بكل نبضاته المحترقة، وأناته الملتهبة.

ويتجلى تنوّع الموسيقى عند الشعراء المجددين في شعر– العقاد– حيث نوّع في قافيته، وقسم قصيدته إلى عدة مقطوعات، كل مقطوعة تتكون من بيتين ينتهيان بقافية ملتزمة، تختلف من مقطوعة إلى أخرى، تتلو كل مقطوعة شطرة شعرية تتنتهي بروي الياء حتي تنتهي القصيدة.

وفي قصيدة (أمسية علي النيل) يقول:

يا حبيبي أنت ري ليس في الماء نظيره
يا حبيبي أنت ظل ليس للروض عبيره
يا حبيبي أنت بدر أين نور البدر منه؟
أين نور زانه الح ب ونور لم يزنه؟
أنت عندي كل شئ كل ما شئت يكون
كيف يعصي لك أمرا والهوي طوع يدينا (١)

ولاشك أن التجديد جبرهم الامتداد والقوة الإبداعية، كما يدلل على الإحساس الحي بمقتضيات العصر وروحه، ومن ذلك أن يضفي على النصوص الشعرية

(١) خمسة دواوين للعقاد (عابر سبيل) ص٤١٧ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

صفة الابتكار الفني والصدق الشعوري، وهما مقومان أساسيان من مقومات أصالة الشاعر، ولا ريب أن المعرفة التاريخية التي تلم بصيغة العصر وتأثيره .. هي طريق التمييز النقدي بين ما هو مبتكر وما هو مقلد وما هو ملائم ومتجاوب مع روح العصر ومؤشراته، وما هو متنافر مع عصره وناشز عن مشاعره.

وهكذا ظل العقاد يسبح في مياه النيل الخالد، لعله يهدأ، وتهدأ نفسه من هذا الفكر الهائج والقانط من الحياة والناس. والفرارمن الطبيعة من الخصائص الفنية لشعر المجددين؛ إذ يبثونها آمالهم الضائعة ويأسهم من الحياة، كذلك من خصائصهم الفنية عدم الاهتمام بوحدة الوزن والقافية في القصيدة؛ لإبعاد الملل والرتابة على نحو ما وجدنا في شعر العقاد.

أحمد زكي أبو شادي

(١٩٨٢-١٩٥٥م)

ولد هذا الشاعر لأب كان محامياً وخطيباً، ولأم كانت تنظم الشعر وتشدوه، ولخال شاعر هو مصطفى نجيب. فالجو الذي نشأ فيه كانت تعبق فيه رائحة الأدب الذكية، وتذكيه رائحة الشعر العبقة، فتحت مواهبه الشاعرية في وقت مبكر، كما ظهر في نتاجه الأدبي أثر تنوع ثقافته، حيث تأثر بالآداب الغربية تاثره بالاداب العربية، فكان مفتوناً بآراء(برادلي) أستاذ الشعر في جامعة أكسفورد كما كان شديد الإعجاب بالشاعر خليل مطران[١].

وكان مكثراً في شعره يقبل عليه في أوقات فراغه حتى خلف لنا ثروة شعرية ضخمة سواء في أغراضه، وأفكاره، ومعانيه، أم في أسلوبه وألفاظه، ومبانيه

(١) النص الأدبي الحديث .د/محمد سعد فشوان ص١١٣ .ط١ مطبعة الجامعات للطبع والنشر عام ١٩٨١م.

وترك وراءه ثلاثة وعشرون ديواناً تحمل دعوته بالتجديد الذي ظل طوال حياته يؤمن بها و يدعو إليها[١].

وكان أحمد زكي أبو شادي رائد مدرسة أبوللو التي ظهرت ١٩٣٢م، وقد عاش في إنجلترا نحو عشر سنوات يدرس الطب وأجاد زملاؤه(إبراهيم ناجي) و(علي محمود طه) و(محمود حسن اسماعيل) وغيرهم.. اللغات الأجنبية واطلعوا على الآداب الأوروبية. ولقد تألق أبوشادي في شعر الطبيعة بصورة لافتة للنظر، ومسترعية للانتباه، فلم يكن وصفه على النحو التقريري القديم، بل كان يرى في الطبيعة أمّه التي تحنو عليه بين أحضانها، ويبثها شكاياته، ويسر إليها بأحزانه، لدرجة تؤهله لأن يقف على رأس شعراء الطبيعة في العصر الحديث.

والمتصفح لدواوينه يجد أن رصيده من شعر الطبيعة رصيدا فخما، استقصى فيه كثيرا من مظاهر بيئته المصرية التي تربى بين أحضانها، ودرج على سهولها، فتناول الطبيعة بأشجارها وزروعها وثمارها، وورودها وأزهارها، وريفها وحيواناتها وطيورها، وهوامها ودواجنها[٢].

والنيل وهو مظهر من مظاهر الطبيعة التي فتن بها أبو شادي افتتانا عظيما، فعبر عنه بأرق الألفاظ، وأعذب الألحان، على ربابة شجية الأنغام. يقول في قصيدة (النيل):

يَجْري بماءِ حياتِنا وحياتِهِ ... فكأنَّما صِرْنا سَرِيَّ نَباتِهِ!

مِن مَوْجِه يُوحَى خُفوقُ قُلوبِنا ... ودِماؤُنا مِن لونِه وصِفاتِهِ

لولاهُ كانتْ «مصرُ» قَفْرًا قاحِلًا ... وبِهِ تَرَى الجَنَّاتِ مِن جنَّاتِهِ![٣]

---

(١) الأدب العربي الحديث . د/محمد عبدالمنعم خفاجي.ج٢ ص٥٤.

(٢) انظر مدرسة أبوللو الشعرية في ضوء النقد الحديث. د/ محمد سعد فشوان ص ٢٣٥،٢٣٦ .دار المعارف الطبعة الأولي ١٩٨٢م.

(٣) ديوان فوق العباب،د/ أحمد زكي أبوشادي ،ص١١١.الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٠م.

لقد دنا أبو شادي من النهر دنوا حميما حتى صارا شيئا واحدا، فالنيل عنده هو إكسير الحياة وهو مانح مصر البقاء والرخاء والنماء والازدهار.

إن الدكتور أحمد زكي أبو شادي مغرم بالنيل، فهوعنده مصدر قوة، وترف للعين والروح والحس جميعا. والشاعر كان بارعا في تصويره، عظيما في خياله، مبدعا في معانيه كما كانت ألفاظه رشيقة متناسقة مع صوره، وإن كنت لا أرتاح بوصف دمائنا بماء النيل. فلسنا بذوي الدماء الزرقاء.. وإن كان يقصد أن مياهه تصير حمراء بما تحمله من غرين.. فمن منا يبغي أن يشرب ماء بهذا اللون وبهذا الوصف.

مِن مَوْجِه يُوحَى خُفوقُ قُلوبِنا ودِماؤُنا مِن لونِه وصِفاتِهِ

وكذلك لا أظن أنه كان موفقاً في قوله :

لولاهُ كانتْ «مصرُ» قَفْرًا قاحِلًا وبهِ تَرَى الجَنَّاتِ مِن جنَّاتِهِ!

فهذا والله شأن أنهار الدنيا، ولا مزية للنيل علي غيره من الأنهار في هذا.

أما قصيدته (فيضان النهر المقدس):

«النيلُ» — يا للنِّيلِ وهو مُوَافِ حَرْبٌ على الأحبابِ والأَلَّافِ!
أوْفِى على الجُزُرِ الغريقةِ ضاحكًا وقضى على الشطِّ الودودِ العافي
فإذا الغِراسُ شهيدةٌ وشهيدةٌ وإذا الضِّفافُ غَدوْنَ غيرَ ضفاف (١)

لقد كانت الحياة اليومية في مصر متعلقة بالنيل، تهابه وتهواه، في وقت واحد، وأبو شادي هنا يشهد ثورة النهر وما تشيعه في مصر من مخاوف وأوهام، يعيش فيها بإحساسه، يصورها في غيرتأنق أوتزويق، فقد إلتهم النهر الزرع والثمار والضفاف، وإن كنت أشم رائحة الشماته في قوله: (حرب على الأحباب والألاف).

وفي هذا المجال الذي لا يدعو إلى التغني بشيء، وقف أبو شادي معجبا بأمواج نهر النيل:

---

(١) ديوان فوق العباب ،ص ٦٥ .

والموجُ مصطفقٌ كخفقِ قلوبنا ... في الرَّوعِ أخفاهنَّ ليس بخافِ
متوثِّبًا وَثْبَ الخيالِ مقيَّدًا ... بحقائقِ الزَّمنِ العتيِّ الجافي
متجلببًا مِن سُمرةٍ ذهبيةٍ ... جُمِعَتْ من الآصالِ والأطيافِ
في فرحِة الشيخِ الوقورِ شُخوصُهُ ... وبرعشةِ المتمرّدِ المتلافِ (١)

ويبدو أن عنفوان الفيضان قد أثار شاعريته، وأظن أنه قد اختار ما يناسب الموقف من ألفاظ مثل قوله: مصطفق، متوثبا، مقيدا، رعشه المتمرد المتلاف. إن للألفاظ دلالة وجرسا واشتقاقا وتناسبا، أثرا في التعبير عن المعنى وترسيخه في نفس القاريء، ولقد وفق الشاعر في اختياره لألفاظه، من هذه الجوانب السالفة الذكر، حتى غدت موائمة للمنعى، مشاكلة للشعور الذي يريد الشاعر إبرازه.

وبهدوء الأمواج يهدأ أبو شادي، فيأتي حديثه عن النهر حديثا هادئا، ونظر إلى النيل نظرة غيبية:

جاءتْ أساطيرُ الجمال بمائهِ ... مِنْ مَنبع الجناتِ لا الأعرافِ
فتقدَّستْ نفحاتُه حتى سرى ... هذا النسيمُ بروحِه الرفَّافِ(٢)

وكيف يكون منبعه من الجنة أسطورة من أساطير الجمال، وقد روى الامام أحمد عن أبي هريرة – ﷺ– عن النبي– ﷺ– (فجرت أربعة أنهار من الجنة، الفرات، والنيل، وسيحان وجيجان).

الملهمِ النوتيَّ في إنشاده ... شعرًا من الآبادِ دونَ قواف
مَزجَ الرويَّ به تموُّجُ مائِهِ ... والبحرَ وقعُ وُثوبهِ الهتَّافِ
وحيٌ يسير إلى الجداول عندما ... تشدو نواعيرٌ لها بزفافِ
وتئنُّ كالشادوفِ أنةَ عاشقٍ ... وافٍ وقد بات الحبيبُ يوافي(٣)

---

(١) ديوان فوق العباب ،د/ أحمد زكي أبوشادي ،ص١٣٢.
(٢) ديوان فوق العباب ،ص ١٣٣.
(٣) السابق ،ص١٣٣.

فهذا الحشد من الصور النيلية التي رسمها أبو شادي للنيل، وعبر بها عن جمال وإلهام هذا النهرالفنان.. إنها صورة الشاعر الذي ألهمه النيل، وصورة الساقية وصورة الشادوف.. وراء كل هذه الصور دلالة كبيرة توحي بالشمول الذي يستوعب الشخص والصوت والحركة.

هوُ عرسُ هذا «النيل» في تجديدهِ عرسٌ لأحلامٍ لها ألفافِ
عُرْسٌ تُباركُه القرونُ حفيَّةً وتَحُفُّهُ الأربابُ في آلافِ[1]

كم شهدت ضفاف النهر الخالد من مواكب، ابتهاجا بفيضانه، فتنظم حلقات الرقص، وتنبعث الأنغام من القيثار رقيق كالغناء الذي تصاحبه.

وترى «الطبيعةَ» كالمصوّرِ عنده نقشته في الأفقِ الحنونِ الصافي
حتى بدا سِحْرُ الغُروبِ كسحرهِ في غير إغراقٍ ولا إسفافِ[2]

وهكذا نجد النيل وسط واديه منظر رائع ساحر أخّاذ، يخيل إليك أن صورة الأصيل والشفق يتوهج بالألوان وكأنه يخلعها على صفحة النهر الخالد.

ومَضتْ مَشاعِرُنا بلهفةِ شاعرٍ في الأُفقِ طائرةً كطيرٍ واف
وعلى خيالاتِ المياه كأنها تُصغي إلى فيضانِها الرجَّافِ
وتُبادلُ الأحقابَ نجواها مِن الـ أحداقِ والأسماعِ والآنافِ
حتى نعيشَ العابدين بعالَمٍ للنيلِ من سحرٍ ومن أطيافِ[3]

يبدو أن للنيل عند الشاعر تاريخ طفولة وشباب، فالنهر يشده إليه شدا قوياً، ليس منه فكاك. وصورة الفيضان وإغراق الأرض عند أبي شادي فيها من معاني القوة والاستيلاء ما يوحي بالشعر، ويثير القريحة ويفجر المعاني.

لقد اعتمد شاعرنا في قصيدته على الصور الشعرية اعتمادا كبيرا؛ لإبراز عواطفه وتصويرأحاسيسه، ولقد كان اختياره لألفاظها دليلا على قدرته في إظهار عواطفه ومشاعره المتوهجة، وقد تراوحت صوره ما بين تشبيه واستعارة

(١) ديوان فوق العباب د/ أحمد زكي أبوشادي ،ص١٣٣.
(٢) ديوان فوق العباب د/ أحمد زكي أبوشادي ،ص١٣٣.
(٣) السابق، ص ١٣٣.

نحو قوله: (وتئن كالشادوف، وترى الطبيعة كالمصور) ليؤدي المعنى الذي يعنيه الشاعر.

وهكذا ظل أبوشادي مفتونا بطبيعة بلده حتى بعد رحيله إلى أوروبا وأمريكا فالنيل دائما أمام عينيه، وحبه له وليد نشأته عليه ثم فراقه له بعد طول إلف وصحبه وكأنه حديث نهاره وحب ليله:

يا ليتني في مصر ألثم تربها كالنيل يلثم شطها بولاء

حتى أجدد من غنى إكسيره عمري وأرشف نعمتي وروائي

فرحان كالطفل الصغير تجمعت كل الكنوز لصفوه في الماء (١)

فالبعد عن الوطن ظاهر في هذه الصور، واختياره لبعض الألفاظ هنا دليل على زيادة وشدة الشوق، وعلى عمق عاطفته.. ألثم تربها، أرشف نعمتي، فرحان كالطفل الصغير، فالشاعر مغرم بمصر والنيل.

ويمضي الشاعر في تحنانه بما يوحي بأن النيل هو حلمه:

أنى نظرت ترى مواكب نسقت للحب بين ترنم وضياء

وترى النخيل على السماء زواهيا فالنيل فاق جمال كل سماء

تتألق الآمال فوق نضاره كتألق الأحلام في الصحراء

فالنيل في شعر أبي شادي هو الحب وهو إكسير الحياة، فماؤه نعمة، ودواء ورواء والذكرى تحلق به فيغدوا مغرماً كبلبل أرسل أغاريده ،أو (كطفل صغيرتجمعت كل الكنوز لصفوه في الماء)

إن النيل عند أبي شادي لا يعدله شيء، لقد فاق عنده كل جميل (فاق جمال كل سماء) وهو آمال شعبه، كل يعلق بفيضه رجاء، المعسر يحلم بالرخاء، والشباب يحلم بالبناء، كل من في مصر على موعد مع النيل (تتألق الآمال فوق نضاره) فحنين شاعرنا حنين شاعر يحترق وقد تذكر النيل، وقد أبعد عنه

(١) ديوان فوق العباب د/ أحمد زكي أبوشادي ،ص١٣٣.

عنوة وانتزع من مصره قسرا. لقد أرغمت الشاعر ظروفا قاسية، ففي شعره لهفه، وفيه تمن، وفيه ظمأ والتياح [١].

وهو ما أكد عليه نقادنا المحدثون؛ لأن أساس هذا الاختلاف بين إبداع شاعر وآخر إنما يرجع إلى محاولة كل شاعر التوافق مع ذوق عصره، و ما يستجد فيه من أحداث وموضوعات، فالجمع بين خصوصية الشاعر الذاتية وواقعه الذي يعيش فيه مطلوب في إبداعه، وذلك على نحو ما نجد عند محمد غنيمي هلال، الذي يرجع الاختلاف في النتاج الفنى إلى اختلاف الأجناس البشرية من حيث الجنس والبيئة وتأثير الماضي في الحاضر. وعلى الطريق نفسه يفسر شوقي ضيف اختلاف الشعور الجمالي في الفنون إلى اختلاف العصور[٢].

ويؤكد نقادنا القدماء والمحدثون على أثر البيئة الزمنية والمكانية في الإبداع الشعري، ويتجلى ذلك في إشارة القاضي الجرجاني في الجمع بين التأثير الناتج عن طبع الشاعر وبين التأثير الناتج عن البيئة المحيطة به، ودور هذه البيئة في طبع الإبداع الشعري بطابعها[٣].

وهو ما أكده كذلك حازم القرطاجني (ت٦٨٤ هـ) بقوله: "ويختلف بحسب اختلاف الأزمان وما يوجد فيها، فمن شأن القول الشعري أن يتعلق به ويختلف بحسب اختلاف الأمكنة وما يوجد فيها مما شأنه أن يوصف" [٤].

---

(١) النيل في الأدب المصري .د/ نعمات أحمد فؤاد ص٣٥٢-٣٥٣.

(٢) انظر: في النقد الأدبي د/ شوقي ضيف ص ١١٤ط٣ دار المعارف مصر .

(٣) انظر: في النقد الأدبي د / شوقي ضيف ص ١٧.

(٤) منهاج البلغاء وشرح الأدباء أبوالحسن حازم القرطاجني. ص٣٧٤ تحقيق محمد حبيب الخوجه ط تونس ١٩٦٦ م.

علي محمود طه

(١٩٠٢-١٩٤٩م)

شاعرنا على محمود طه، واحد من أعلام مدرسة أبوللو التي حلّقت حول الشاعر أحمد زكي أبو شادي، الذي يعد الأب الروحي لهذه المدرسة، والتي أحدثت انعطافه حقيقيه في تاريخ الشعر العربي الحديث.

لقد ولد على محمود طه في المنصورة، عروس الدلتا، ومدينة الجمال وتخرج في مدرسة الفنون والصنائع سنه ١٩٢٤م، ثم عين مهندسا معماريا بالمنصورة حيث التقى فيها بأحمد حسن الزيات، وإبراهيم ناجي، ومحمد عبد المعطي الهمشري وصالح جودت، ومختار الوكيل. ولعل هذه الزمالة الفنية المبكرة، قد أفادت بعضهم، وقربت بين اتجاهاتهم الأدبية. ثم ينتقلون هؤلاء إلى القاهرة مع نهاية العقد الثالث من القرن الماضي ...ويلتقون بأبي شادي تمهيدا لتكوين جماعتهم الشعرية ومدرستهم الأدبية.

ولقد ثقّف شاعرنا نفسه بثقافة واسعة يستوي فيها الأدب الانجليزي أو الفرنسي وكذلك كان لرحلاته في أوروبا ولاسيما إيطاليا الأثر الكبير علي إثراء شعره وإخصاب مخيلته. وقد ترك علي محمود طه تراثا شعريا له قيمته الفنية، التي جعلت منه واحدا من أهم الأساتذه لشعراء المدرسة المعاصرة في الشعر، سواء في مصر أو في غيرها. وليس أدل على هذا مما حظى به شاعرنا على محمود طه من اهتمام كثير ممن تصدوا لتاريخ الشعر الحديث مثل: طه حسين، محمد مندور، وشوقي ضيف ونازك الملائكة، و أنور المعداوي، وصلاح عبد الصبور وغيرهم [١].

وهو من الشعراء الرومانسيين الذين تناولوا الطبيعة بصورة حانيه، فوظفها لخدمة الصورة الشعرية فقد فتن بطبيعة مصر بأزهارها وأشجارها ورياضها.

---

(١) انظر: جماليات القصيدة المعاصرة . د/ طه وادي ص١٦٩:ص١٧١ طبع ونشر دار المعارف ١٩٨٢م.

ومن أبرز خصائص الإبداع الشعري أن الشاعر يستخدم اللغة الحية، ذات التعبيرات المتمثلة بأكثر من سياق واحد، ومن ثم فهي يمكن أن تشير إلي أكثر من معنى وأن توحي إلي جانب معناها الظاهر بمعان ثانوية أو هامشية لا يمكن تجاهلها في العمل الأدبي(١). بخلاف الصنعة التي تبعدنا عن الحياة(٢). ومع أن الشاعر كان يعيش في المنصورة، والنيل فيها كما نعرفه أكثراتساعا وجمالا، و لكن يبدو أن الألفة ومشاغل الحياة صرفته عن النيل، في حين أن نهر (الرين) سحره حين وقعت عليه عيناه أول مرة عندما سافر إلى أوروبا وكما يقال: الغريب دائما مفتوح العين فهو أقدر على الملاحظة وأكثر استعدادا للانفعال والاستجابة، وأشد رغبة في التماس الجمال في كل مكان كلون من التعويض والنسيان، مع أن ما يفتن به المرء في غير بلده، قد يمر به في موطنه مر الكرام.

وها هو يسحر علي محمود طه حين يقول:

كنزُ أحلامِكَ، يا شاعرُ، في هذا المكانِ
سحرُ أنغامِكَ طوَّافٌ بهاتيكَ المغاني
فجرُ أيامِكَ رفَّافٌ على هذي المجاني
أيُّها الشاعرُ، هذا الرَّيْنُ، فاصدحْ بالأغاني (٣)

فهذه هتفة إعجاب، ولكن ليست في محلها، فقد تاهت عن موطنها مع الملاح في الليل. ولكن لم يلبث الشاعر المسحور بالرين وجندول البندقية، أن هتف بالنيل وبه من الشوق ما يحرق القلوب: "أغنية الجندول"

---

(١) انظر: الأدب وفنونة د/ محمد عناني ص٤١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م .

(٢) انظر:في الميزان الجديد د/محمد مندور ص ٢٣ ط دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة.

(٣) ديوان علي محمود طه "ديوان ليالي المداح التائه " ص٣٢٥ ط دار العودة بيروت عام ١٩٧٢م .

أينَ من فارسوفيا تلكَ المجالي؟ يا عروسَ البحر، يا حُلْمَ الخيالِ
قلتُ، والنشوةُ تسري في لساني: هاجتِ الذكرى، فأينَ الهرَمانِ؟
أين وادي السِّحرِ صدَّاحُ المغاني؟ أينَ ماءُ النيل؟ أين الضِّفَّتَانِ؟
آه لو كنتَ معي نختالُ عَبْرَهْ
بشراعٍ تَسْبَحُ الأنجمُ إثْرَهْ
حيثُ يَروي الموجُ في أرخم نَبْرَهْ
حُلْمُ ليل من ليالي كليوبترَهْ (١)

فسحر النيل لا يقاوم وما قاله عن الرين، قد يكون رغبة في التقليد أو حب الغناء الخفيف، والنيل العظيم – كما نعرف – يوحي بشيء من الجلال أراد أن يتخلص منه أو لعله حنينا تفتح في أوروبا على منظر بعينه شغله عما سواه..

وها هو ذا وقد طافت به ذكرى (كليوباترة) فمضى معها، يخاطبها وهي تسأل: قصيدة ليالي كليوباترة:

يا ضِفافَ النيلِ باللهِ ويا خُضْرَ الروابي
هل رأيتنَّ على النهر فتًى غَضَّ الإهابِ
أسمرَ الجبهةِ كالخمرةِ في النُّورِ المذابِ
سابحًا في زورقٍ من صُنْع أحلامِ الشبابِ؟
إن يكُنْ مَرَّ وَحَيًّا من بعيدٍ أو قريبِ
فصفيهِ، وأعيدي وصْفَهُ، فهو حبيبي! (٢)

وهو يجيب:

أنتِ يا من عُدْتِ بالذكرى وأحلام الليالي

---

(١) ديوان علي محمود طه "ديوان ليالي المداح التائه"ص٢٢٥ ط دار العودة بيروت ١٩٧٢م.

(٢) ديوان علي محمود طه" زهر وخمر" ص ٤٧٤ ط دار العودة بيروت ١٩٧٢م.

يا ابنةَ النَّهرِ الذي غَنَّاهُ أربابُ الخيالِ
وتمنَّت فيه لو تسبحُ ربَّاتُ الجمالِ
موجُه الشَّادي عشيقُ النُّور، معبودُ الظلالِ
لم يَزَلْ يَروِي، وتُصغي للرواياتِ الدهورُ
والضفافُ الخضْرُ سكرَى، والسَّنا كأْسٌ تدورُ (١)

فالشاعر– هنا – له تخيله الخاص به، من وحي عبقريته المنفردة، فيشكل أنساقا خاصة من التخيل، الخمرة في النور المذاب، السباحة في ذورق، من نور الشباب، أفراح القلب، يا ضفاف النيل، يا خضر الروابي، فتى غض الإهاب، سابحا في ذورق إن يكن مروحيا، في كل لفظة هنا بسمة.. بسمة حب وأمل. ومن يتأمل الأبيات يتأكد أن علي محمود طه من الشعراء الذين يتواكب عليه من الكثير من الألفاظ حيث تغزوهم المعاني، بحيث يستطيع أن يوقظ ما تحت كل كلمة من رصيدها الشعوري والنفسي.

ونلاحظ أن النيل في شعر علي محمود طه كان حنينا شديدا، أو ذكريات جميلة كما أنه في نظره لوحة رائعة كوّنتها الرُبي الخضر، والنور والظلال، والذورق الحالم. ونهر الرين لم يؤثرعلى حبه للنيل، ولم تقطع الصلات والروابط من قلب الشاعر، فانطلق نداء الإعجاب بالجمال خالصة، لم يزاحم النيل العظيم علي حس الشاعر منافس(٢). والنيل عنده كذلك رباط مقدس ربط بين القلوب، وأواصر الشعوب، فوقف (على النيل) ينادي ..أخي في الله ..أخي في الدين ..أخي في النيل..

أخي! إنْ وردتَ النِّيلَ قبل ورودي فحيِّ ذِمامي عِنْدَهُ وعُهُودي
وقَبِّلْ ثرًى فيه امتزجنا أُبَوَّةً وَنُسْلِمُهُ لابنٍ لنا وحفيدِ
أخي! إن أذن الفجر لَبَّيْتَ صوتهُ سَمِعْتَ لتكبيري ووقْعِ سجودي

(١) ديوان علي محمود طه "ليالي المداح التائه"ص٢٢٥ .
(٢) انظر:النيل في الأدب المصري .د/ نعمات أحمد فؤاد ص٣٥٠ ص٣٥١.

وما صُغْتَ قولًا أو هتفتَ بآيةٍ خَلا مَنطقي من لفظها وقصيدِي[1]

أخي في الجنوب لا تعبأ بأباطيل المرجفين، فإن رماك نذير السوء فينا بنبأه فلا تبالي؛ لأن النيل نفسه لا يبالي، فهو معطاء لا يبخل علينا، ولا يمتن بعطائه، فحياتنا مربوطة به. هذا النيل هو الذي أوحى بفكره الوحدة التي ربطت بين شقيّ الوادي وبين أهل الجنوب، الذين رأوا واديه يتسع كلما اتجه إلى الشمال، ويفيض بالرزق الوفير، حتى إذا بلغ أقصى الشمال بلغ غناه المترف حين يفتح ذراعيه عند القاهرة ليضم بينهما كل زائر أو قاصد خير.

عَلى النيل يا ابن النيل أطلِقْ شرَاعنَا وقُلْ للَياليهِ الهنيَّةِ: عودي
وأَرسلْ على الوادي حمائمَ أيكهِ برنَّةِ وَلْهَى أو شكاة عميدِ
وقل: يا عروسَ النبع هاتي من الجنَى وَدُوري عَلَيْنا بالرحيق وجودي
وَهُبّي عذارى النَّخلِ فرعاءَ وارقصي بخُضْرِ أكاليلٍ وحُمْرِ عقودِ[2]

ما أهنأنا بك أيها النيل، فمن مياهك نرتوي وفي واديك نحيا ونسعد، وعلى ضفافك نلهو ونلعب، فأي فتنة أعظم من هذه، فحمائم الأيك تشدوا، حتي النخيل تتمايل طربا فالنيل حق للجميع، وفيه متسع للجميع ،والخروج إليه متعة لا يتقاضى ثمنه من أحد استمع إليه يقول:

ألا يا أخي واملأْ كئوسَ محبَّةٍ مُقَدَّسَةٍ موعودةٍ بخلودِ
إذا هي هانتْ فانْعَ للشمس نورَها وللقمر الساري بروجَ سعودِ
وَقُلْ: يا سماءَ النيل ويحكِ أقلعي ويا أرضُ بالشُّمِّ الرَّواسخ مِيدي
وغيضي عيونَ الماءِ! أو فتفجَّري لظى، وإنِ اسطعتِ المزيدَ فزيدي![3]

ولما كان النهر منبع الحب، و ملتقى الأحبة، فاملأ كؤوسنا بالحب السرمدي، وإلا ما استحق أن يعيش، وحق السماء أن تقلع عن المطر، وحق الأرض أن تميد بجبالها وحق للنيل أن يجف، وحقا للعيون أن تنفجر نارا لا ماء.. وهنا

(١) ديوان علي محمود طه "ديوان علي النيل"ص٧٦٤ ط دار العودة بيروت ١٩٧٢م.
(٢) ديوان علي محمود طه "ديوان علي النيل"ص٧٧٠ ط دار العودة بيروت ١٩٧٢م.
(٣) ديوان علي محمود طه "ديوان علي النيل"ص٧٧١

تظهر ثقافة الشاعر الإسلامية، بما استعان به من ألفاظ قرآنية. والتكرار الذي عمد إليه الشاعر في قوله (أخي) يعطي إيحاء المشاركة الوجدانية، والإلحاح على ذلك الرباط الذي يحرص الشاعر علي إظهاره وإبرازه.

لقد تعود على محمود طه أن يغمر القارىء ببخور من الألفاظ كي يؤثر فيه، وهو يحرق هذا البخور دائما في كل قصائده، وهو ما سيطر به حينا من الزمن على جوها الفني، بحيث آمن كثيرون أنه قلما يلحقه او يضاهيه شاعر من معاصريه المصريين(١).

أما الصورة الفنية في شعره فهي مفعمة بالحياة، خصبة بالعطاء، حيث نجد الشاعر يستعين على تشكيلها بكل وسائل الإحساس الإنساني المبصرة والمتذوقة والمتأملة. كما مزج بين الكون والطبيعة، وبين رهافة الحس وواقع الحياة.

ويشير شوقي ضيف ولعل ذلك مما دفعنا إلى أن نكشف عن خصائصة الفنية، وأن هذه الخصائص إنما تعود في جملتها إلى خصائص لفظية، فليس علي محمود طه صاحب نزعة فلسفية في شعره، ولا هو صاحب نزعة نفسية، إنما هو صاحب لغة شعرية تبعث النشوة في نفس سامعه وقارئه بألفاظها البراقة، وما تحمل من رنين يبدع فيه(٢). والحق أن علي محمود طه نجح إلى حد كبير في تصوير نهر النيل بألفاظه البراقة وعشقه الكبير لنبع الحب وملتقى الأحبة وشريان الحياة.

---

(١) انظر: دراسات في الشعر العربي المعاصر د/ شوقي ضيف ص ١٩٨-١٩٩ ط دار المعارف بمصر ١٩٥٩م

(٢) انظر: دراسات في الشعر العربي المعاصر د/ شوقي ضيف ص١٩٩

عبدالمنعم عوّاد يوسف

(١٩٣٣-٢٠١٠م)

ولد الشاعر عبد المنعم عواد يوسف حسنين بقرية شبين القناطر إحدى قرى محافظة القليوبية. وكان أبوه تاجرا، ولظروف خاصة تدهورت تجارته فصار وسيطا بين التجار. أمّا أمّه فقد كانت من بيت كريم.. لكنها انفصلت عن والده لخلاف وقع بينهما، وكان شاعرنا لا زال صغيرا لا يتعدى العامين، فتربى في كنف عمته حتى بلغ الرابعة من عمره، فعاش في بيت أبيه، في ظل رعاية زوجة الأب(١). وعلى الرغم من هذا فلم يفتقد الشاعر الحب والحنان بافتقاد الأم، حيث إن هذه الزوجة كانت سيدة صالحة عاملته بكل حب وحنان، وفي الوقت نفسه لم تمنعه عن زيارة أمه. ونلاحظ أن شاعرنا لم ينشأ في أسرة تنتمي إلى الأدب من بعيد أو قريب. غير أن جده لأمه الشيخ يوسف الصواف كان شاعرا وله ديوان مطبوع من الشعر العامي، ولم يكن من أقارب آخرون لهم اهتمام بهذا الفن الجميل.. الشعر(٢).

وعن نشأته الدينية فقد تحدث الشاعر عنها بقوله: إنني نشأت في بيئة دينية فبيتي الأول كان ملاصقاً للمسجد، فكنت أسمع الآذان خمس مرات في اليوم والليلة، وكنت منذ طفولتي حريصا على أن أؤدي العبادات كما كان أبي حريصا على أن يؤدي الآذان في هذا المسجد، فارتباطي بالمسجد كان ارتباطا وثيقا حيث كنت أنا وزملائي نقضي معظم أوقاتنا في المسجد للاستذكار. كما أن جدي لوالدتي الشيخ محمد منصور كان من كبار علماء الأزهر، وكان تلميذا للإمام محمد عبده وكثيرا ما كنت أجلس إليه، و يمدنى بتوجيهاته (٣).

---

(١) حديث مسجل مع الشاعر بتاريخ ٢٠٠١/١٢/١٨ بتصرف.

(٢) انظر: مقدمة ديوان وكما يموت الناس مات–عبدالمنعم عواد يوسف .

(٣) حديث مسجل مع الشاعر بتصرف.

وهذا الاعتراف من الشاعر بالنشأة الدينية الأصلية يؤكد صدق انتمائه للإسلام، وقد وضح ذلك في شعره على ما سنبينه في موضعه من هذه الدراسة(١).

لقد صنع النيل تاريخ مصر وشيد حضارتها وخلع على أرضها ألوان السحر، فعرفت الجمال واهتدت إلى الفن بما قبسه من ألوانه في التصوير، وسجلت أنغامه في الموسيقى وصاغت آلاءه في الشعر، وسبحت بنغماته في القصيد، ورتلت باسمه الأناشيد(٢).

لذا لقد أخذت شاعرنا طبيعة مصر الخالدة، وهو جالس على شاطئ النيل يحدق في وجوه الغادين والرائحين حينا، وحينا في مياهه يتأمل عظمة الخالق في صنعته، كذا الأهرامات الشامخة التي تعتبر علامة بارزة من آثار مصر القديمة والحديثة، والشاهد على مجد مصر التليد يقول:

يا مقعدي الحجري يجثوا في حمى النيل العظيم
وأنا أحدق في الوجوه
حيناً
وحيناً في المياه
وذوائب الأهرام تشمخ من بعيد
تمتد شاهدة على المجد التليد (٣)

تبرز القصيدة ولعه بالنيل، حتى وصلت درجة ولعه أن وصف الفتيات وهن يحتضن مياهه، كاشفات عن سيقانهن التي تختلف طولا وقصرا، منها السمراء ومنها البيضاء، ثم وصف ضحكاتهن المنبعثات وهن صوب الماء يملأن

---

(١) انظر رسالة الماجستير د/ محمد فتحي قنطوش بعنوان الاتجاه الاسلامي بين الشاعرين كامل امين وعبدالمنعم عواد يوسف ص٩٦-٩٧ (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م)

(٢) النيل في الأدب الشعبي د/ نعمات أحمد فؤاد ص٧ .دار الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م.

(٣) للحب أغني ص٢٧ .عبدالمنعم عواد يوسف .ط١ دار الأنصار ١٩٧٦م.

بلاليصهن والأمواج تتمايل بهن، صورة بديعة من صور التعبير الشعري حين يجعل للنيل عيونا ويدا تحتضن الفتيات، كما أعطانا صورة عن الريف المصري في ذاك الوقت يقول :

عيون النيل تحتضن البنات

كشفن عن سيقانهن البيض أحياناً

وسمراً أغلب الاحيان

ثم نزلن صوب الماء يملأن الجرار

ضحكن حين تدغدغ الأمواه باطنها

فتنطلق الصبايا تنثر الضحكات (١)

ثم يعطينا منظرا خلابا عن طبيعة النيل الساحرة، عندما تطل الأشجار علي شاطئه ويجلس تحتها العشاق يتبادلون أسمى معاني الحب الطاهر؛ لأن بينه وبين النيل آصرة حب ومودة، وحنينه إليه وإلي أيامه العذراء في غربته دائم ومستمر يقول :

ومد النيل أهدابا

ليجلس تحتها العشاق من بلدي

وهم يتلون آي الحب طاهرة

وهذا النيل أعرفه ويعرفني

فهذا النيل نيلي

آه كم أهفو إلي أيامه العذراء! (٢)

إن حياة شاعرنا الأولى في قرية شبين القناطر الواقعة على البحر الشبيني صنعت حبه الكبير للطبيعة.

---

(١) ديوان لكم نيلكم ولي نيل .ص٥ عبد المنعم عواد يوسف ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

(٢) ديوان لكم نيلكم ولي نيل ص٦-٧ .

والنيل بما وهبه الله –تعالي – من صور تضفي الجمال على المكان والزمان فيسري الحب في قلوب العشاق، مما يتيح للأحاسيس أن تستمتع بنفحات العطر وأصوات الطيور. وقد جاءت القصيدة من الشعر الحر حيث إن الشاعر ممن أجادوا فيه وعلى أية حال ما زالت قضية تطور القالب الشعري موضع دراسات ومناقشات مما يكسبه تعددا في الأشكال وخصوبة في المعاني والأفكار.

الخاتمة

إن النيل شريان من شرايين مصر الخالدة، له مكانة غالية ووقع طيب في نفس الشعب المصري، ومنزلة رفيعة في أدب هذا الشعب، من أجل هذا تجلى في شعر كوكبة من أعظم الشعراء، يمثلون أشهر مدرستين في الأدب: مدرسة المحافظين ومدرسة المجددين. ولقد اقتصرت على هؤلاء الشعراء؛ وذلك لظهور النيل في شعرهم بكثرة وتنوع، كما أنه التزام بحيز الكم، و ليس حصرا؛ لأن من يتوافر على دراسة شعر النيل كله.. فلا أقل من أن يتناول معظم الشعراء المعاصرين؛ فأغلبهم نظروا إلى النيل نظرة العاشق الولهان، واعتبروه أهم مقومات الحياة المصرية المادية والمعنوية.

فالبارودي عشق النيل، وهو عشق لمصر، وحن إلى النيل في غربته، وهو حنين لمصر، وحين يدعو للنيل فهو يدعو لمصر بالخصب والنماء، فما كان يمكن للبارودي أن يتصور مصر إلا أنها هي النيل.

وجاء شوقي فرأى النيل الطاعم الكاسى، الصانع الفنان، الذي يحمل سر مصر والمصريين.. فعلي ضفافه سمعت حضارتنا، وفي واديه نمى الحب والرخاء.. كذلك أبدع حافظ إبراهيم شاعر النيل أجمل صور الجمال الشعري، والتي جمعت بين الأصالة والمعاصرة الفنية .

ثم جاء حافظ إبراهيم الذي اعتبر النيل هو مصر، ومصر هي النيل، فبدأ يخاطبه، ويعاتبه، ويحذره، ويحمله المسؤولية.. تجاه مصر.. وأبناء مصر.

أما العقاد، وأبو شادي، وعلى محمود طه، وعبدالمنعم عواد يوسف فالنيل عندهم هو ملتقي الأحبة، وعلى صفحته ينعكس ضوء القمر، فيحلو السهر، ويرق السمر، ويعذب الحديث، فأمواجه تتعانق وتحمل معها أسرار المحبين.. ووعود العاشقين، وهي خير من يحمل الأخبار ويحافظ علي الأسرار.

كما أثبتت الدراسة أن الفضل يرجع للشعراء المحافظين وفي مقدمتهم محمود سامي البارودي في إهمال الصنعة، والرجوع بالشعر إلي عهده الأول؛ فعنوا بجودة السبك وصحة العبارة وحسن اختيار الألفاظ وملائمتها للمعاني،

ومن ثم كان الشعراء المحافظون أميل إلي المحافظة منهم إلي التجديد، غير أن هذه المحافظة لم تمنع بعضهم من التأثر بالآداب الغربية كأحمد شوقي.

ثم جاء المجددون، واهتموا بدقة المعاني وعمق الأفكار، أكثر من عنايتهم بالألفاظ، مع تفاوت أساليبهم تبعاً لتفاوت قدراتهم الأدبية، وتحرروا من القيود القديمة، من حيث استهلال القصائد فأصبحوا يطرقون الموضوع مباشرة، واهتموا بوحدة الموضوع لا يتعدونه إلي غيره، وتتعاون أجزاء القصيدة علي تأديته لتحقق الوحدة العضوية في القصيدة. وقد يتناول الشاعر أحاسيس مختلفة، ولكنها من وحي موقف شعوري واحد.

وأوضحت الدراسة كذلك أن الشعراء المجددين برعوا في شعر الطبيعة ولا سيما شعرهم في النيل، حيث اتسع ميدان الخيال وسايروا حركة التجديد في الشعر، وأصبح خيالا واسعا يجسم الإحساس، ويشخص الكائنات الموجودة في الطبيعة، ويتغلغل في أعماق النفس البشرية؛ ليكشف عن كثير من أسرارها، ويصورها أجمل تصوير، وعنوا بتشخيصها وامتزجوا بها، فكأنهم قطعة منها يمزجون بها روحهم. فالطبيعة عند الشعراء المجددين ينبوع الشعر الجميل ومصدر حياتهم، والنيل عندهم نبع الحياة ومصدرها، وجزء لا يتجزأ من الطبيعة المصرية الخالدة الجميلة، له مكانة غالية ومنزلة رفيعة في أرواحهم وأشعارهم.

كما أظهرت الدراسة أن للشعراء المحافظين والمجددين مع النيل حالة شعورية متكاملة، لا تحد بحدود، ولا تنتهي بقيود، فنحس بعد قراءة القصيدة أوسماعها أن تجربة الشاعر انتقلت إلينا فعشناها كما عايشها الشاعر، حيث اشترط النقاد المعاصرون أن يكون الشاعر صادقا في تجربته، وليس معنى صدقه أن ينقل الحقائق أو يصورها كما هي في الواقع، وإنما يراد بالصدق: الصدق الفني، ويتجلي ذلك في تعبير الشاعر عن نفسه بتصوير شعوره تصويرا صادقا، ولو كان ذلك مخالفا للواقع والحقيقة، ولذلك عابوا أن يقول ما

لا يؤمن به، ولذا أوجبوا علي الشاعر أن يستوحي موضوعاته من التجربة التي يعيش فيها.

كما أثبتت الدراسة، حرص الشعراء المحافظين علي قالب القصيدة العربية القديمة من حيث الوزن والقافية. ولكن المجددين الذين يعبرون عن الاتجاه الوجداني والتجربة الذاتية، مالوا إلى استخدام مفردات الطبيعة وتشخيصها، والتحرر من قيود الوزن والقافية، وشكل القصيدة التقليدية.

حيث حاول بعض دعاة التطور أن يضعوا قوالب جديدة لهذه الحركة التجديدية، وهو ما يعرف بالشعر الحر، علي نحو ما وجدنا عند عبدالمنعم عواد يوسف الذي عبر عن النيل بالشعر الحر، الذي التزم فيه بوحدة التفعيلة، ولم يلتزم بوحدة القافية، ولعل لرؤاه الفسيحة وتنقلاته الكثيرة وغربته الطويلة، هو ما جعله يعبر بهذا اللون الشعري، ومازالت قضية تطور الشعر من حيث القالب موضع دراسات ومناقشات مسايرة لحركة الشعر العالمي.

هذا هو النيل ملهم الشعراء، ورسول النماء والرخاء، وملاذ المحبين، فالأحبة يقصدونه وهم في مأمن؛ لأن النيل حق للجميع، والخروج إليه متعة لا يتقاضى ثمنها أحد، وهو مصدر كل شيء حي في مصر: إنه حياة للعاشق والمعشوق للناس ..للحيوان ..للنبات.

وهذا هو النيل خير أنهار الدنيا وسيدها، وصانع التاريخ لمصر وشعبها، وخالق حضارة تزداد جلالا مع الأيام. وهذا هو النيل العظيم على لسان شعراء مصر، في العصر الحديث، أقدمه في صورة أرجو من الله – تعالى – أن تنال الرضا وتحوز السبق.. والله تعالى يهدينا سواء السبيل، و هو ولينا ونعم النصير.

الباحث: د/ محمد فتحي قنطوش

المصادر والمراجع

مصادر البحث ومراجعه

أولا-الأعمال الشعرية:

١- ديوان البارودي .محمود سامي البارودي. حققه وضبطه وشرحه علي الجارم .محمد شفيق معروف. ط دار العودة بيروت ١٩٩٨م.

٢- ديوان حافظ أبراهيم تقديم أحمد أمين ،ط دار العودة للصحافة والطباعة والنشر بيروت ١٩٧٣م.

٣- الشوقيات.أحمد شوقي. ط الأستقامة نشر المكتبة التجارية الكبري.

٤- خمسة دواوين للعقاد،ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

٥- ديوان علي النيل لعلي محمود طه ، ط دار العودة بيروت ١٩٧٢م.

٦- ديوان فوق الغمام لأحمد زكي أبوشادي، ط دار العودة بيروت ١٩٧٢م.

٧- ديوان لكم نيلكم ولي نيل . عبدالمنعم عواد يوسف. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٣م.

٨- ديوان للحب أغني. عبدالمنعم عواد يوسف. ط دار الأنصار ١٩٧٦م.

ثانيا: **الكتب**:

١- الاتجاه الإسلامي بين الشاعرين كامل أمين وعبدالمنعم عواد يوسف رسالة ماجستير د/ محمد فتحي قنطوش (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).

٢- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د/ عبدالقادر القط .ط٢ دار النهضة العربية للطباعة والنشر(١٤٠١هـ-١٩٨١م).

٣- الأدب العربي الحديث د/محمد سعد فشوان .ط الرسالة القاهرة ١٩٨٦م.

٤- الأدب العربي الحديث د/محمد عبدالمنعم خفاجي. طمكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٥م.

٥- الأدب والحضارة د/ السيد تقي الدين .ط دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٨٤م.

٦- الأدب وفنونه د/ محمد عناني .ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.
٧- الإفادة والاعتبار د/ عبداللطيف البغدادي .ط الطبعه وادي النيل.
٨- التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد د/ عبدالحي دياب . ط دار الكاتب العربي ١٩٦٨م.
٩- تفسير القرآن الجليل المسمي بمدارك التذيل وحقائق التأويل لعبدالله أحمد بن محمد النسفي. ط بولاق.
١٠- تفسير القرآن العظيم للإمام إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .ط المكتبة التوفيقية.
١١- جغرافيا مصر وحوض النيل د/ محمد محمود الصياد .ط دار الأخبار ١٩٨٨م.
١٢- جماليات القصيدة المعاصرة د/ طه وادي .ط دار المعارف ١٩٨٢م.
١٣- دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه د/ محمد عبدالمنعم خفاجي الحلقة الأولي. ط دار الطباعة المحمدية القاهرة.
١٤- دراسات في الأدب العربي المعاصر د/ شوقي ضيف. ط دار المعارف بمصر ١٩٥٩م.
١٥- رواد الشعر الحديث د/ مختار الوكيل. ط٢ دار المعارف القاهرة.
١٦- شعراء مصر د/ عبدالله شرف. ط١ المطبعة العربية الحديثة القاهرة ١٩٩٣م.
١٧- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي عباس محمود العقاد. ط دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة ١٩٧٣م.
١٨- شوقي شاعر العصر الحديث. د/ شوقي ضيف ط٧ .
١٩- في الأدب العربي الحديث د/ عمر الدسوقي. ط٣ الرسالة نشر دار الفكر العربي.
٢٠- في الميزان الجديد د/ محمد مندور ط دار نهضة مصر الفجالة القاهرة.

٢١- في النقد الأدبي د/ شوقي ضيف ط٣. دار المعارف بمصر.
٢٢- القاموس المحيط-الفيروز أبادي-ط٢ طبع ونشر مطبعة البابي الحلبي ١٩٥٢ م.
٢٣- قصص الأنبياء أ/عبدالوهاب النجار ط٤. مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٥٦م.
٢٤- لسان العرب ابن منظور ط دار المعارف.
٢٥- مدرسة أبوللو الشعرية في ضوء النقد الحديث د/ محمد سعد فشوان ط١ دار المعارف ١٩٨٢م.
٢٦- المصباح المنير.أحمد بن محمد الفيومي. طبع ونشر دار المعارف- القاهرة.
٢٧- منهاج البلغاء وشرح الأدباء أبوالحسن حازم القرطاجني تحقيق محمد حبيب الخوجة ط تونس ١٩٦٦م.
٢٨- النزعة الإنسانية في شعر العقاد د/ عبدالحي دياب ط دار النهضة العربية ١٩٦٩م.
٢٩- النص الأدبي الحديث د/ محمد سعد فشوان ط١ مطبعة الجامعات للطبع والنشر ١٩٨١م.
٣٠- نهاية الأرب في فنون الأدب للتنويري ط دار الكتب ١٩٢٣م.
٣١- النيل في الأدب المصري د/ نعمات أحمد فؤاد ط دار المعارف ١٩٦٢م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٢٢٥
التمهيد: نهر النيل تاريخ وحضارة	٢٢٩
الفصل الأول: نهر النيل عند الشعراء المحافظين	٢٤٠
المبحث الأول: محمود سامي البارودي	٢٤٠
المبحث الثاني: أحمد شوقي	٢٤٥
المبحث الثالث: حافظ إبراهيم	٢٥٦
الفصل الثاني: نهر النيل عند الشعراء المحدثين	٢٦١
المبحث الأول: عباس محمود العقاد	٢٦١
المبحث الثاني: أحمد زكي أبوشادي	٢٧١
المبحث الثالث: علي محمود طه	٢٧٨
المبحث الرابع: عبدالمنعم عواد يوسف	٢٨٤
الخاتمة	٢٨٨
مصادر البحث ومراجعه	٢٩١
فهرس الموضوعات	٢٩٤